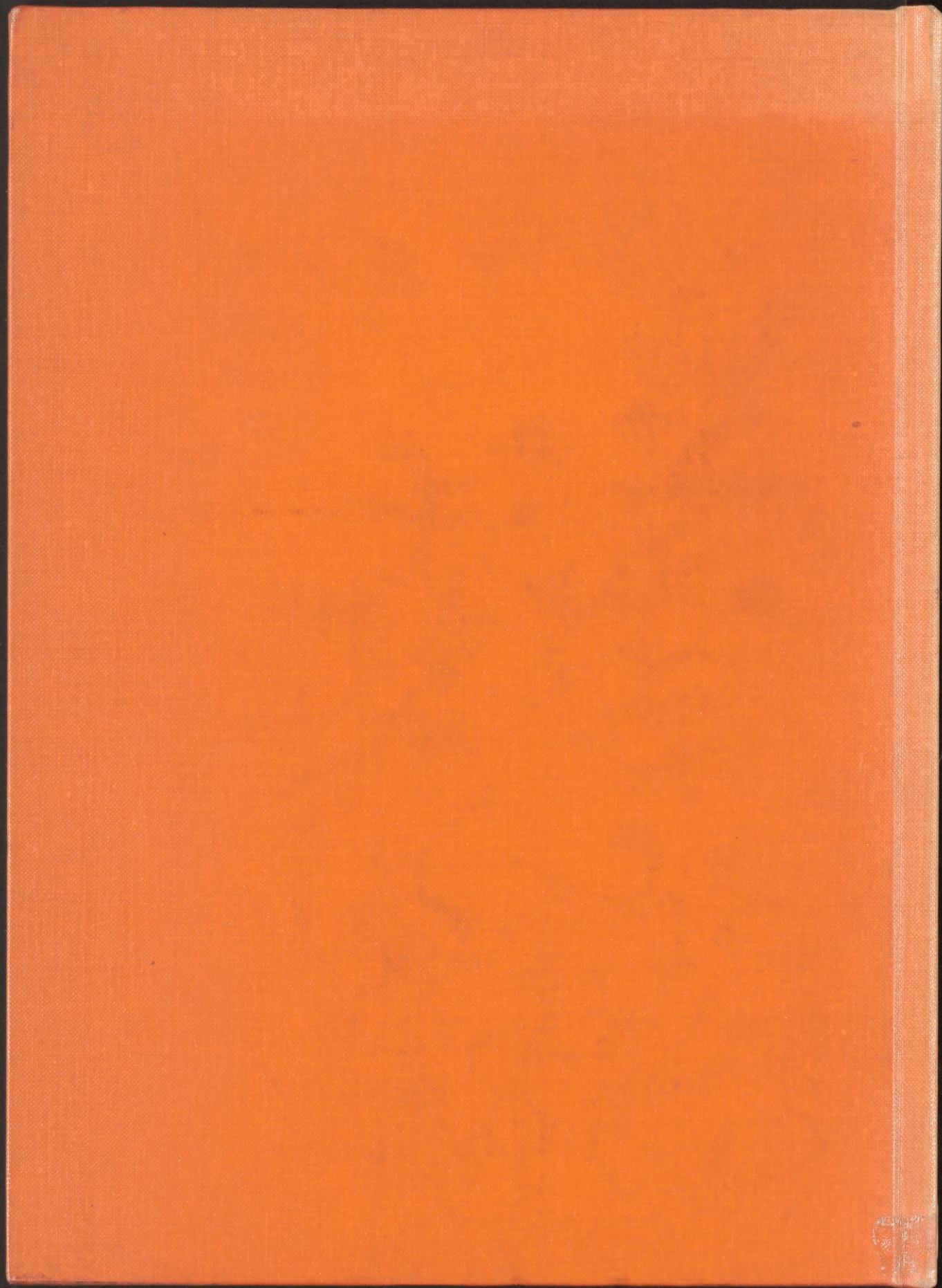
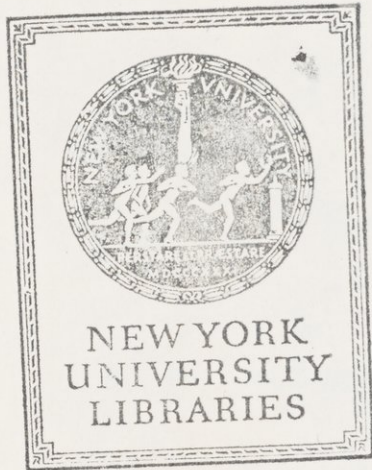




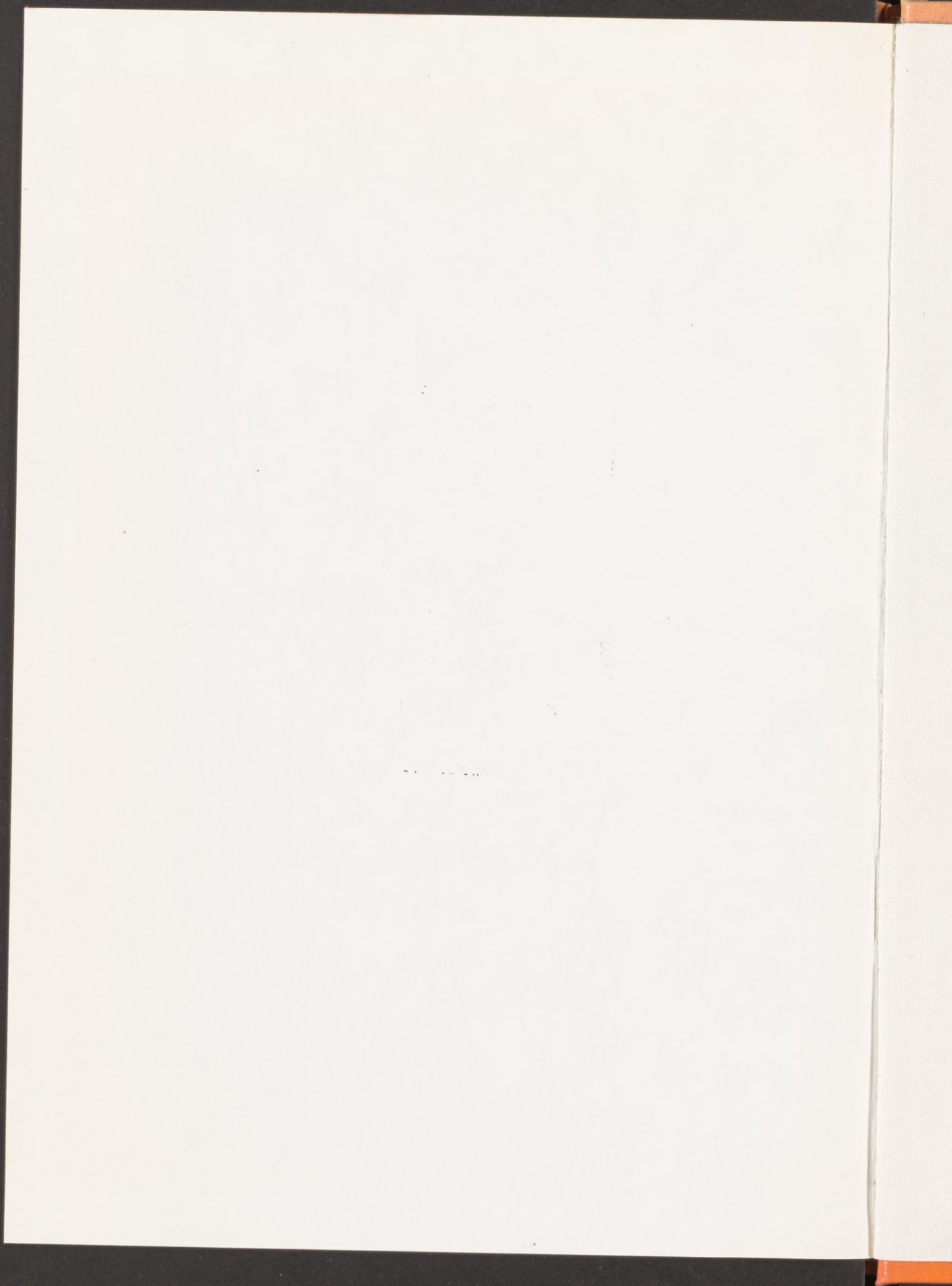
BOBST LIBRARY

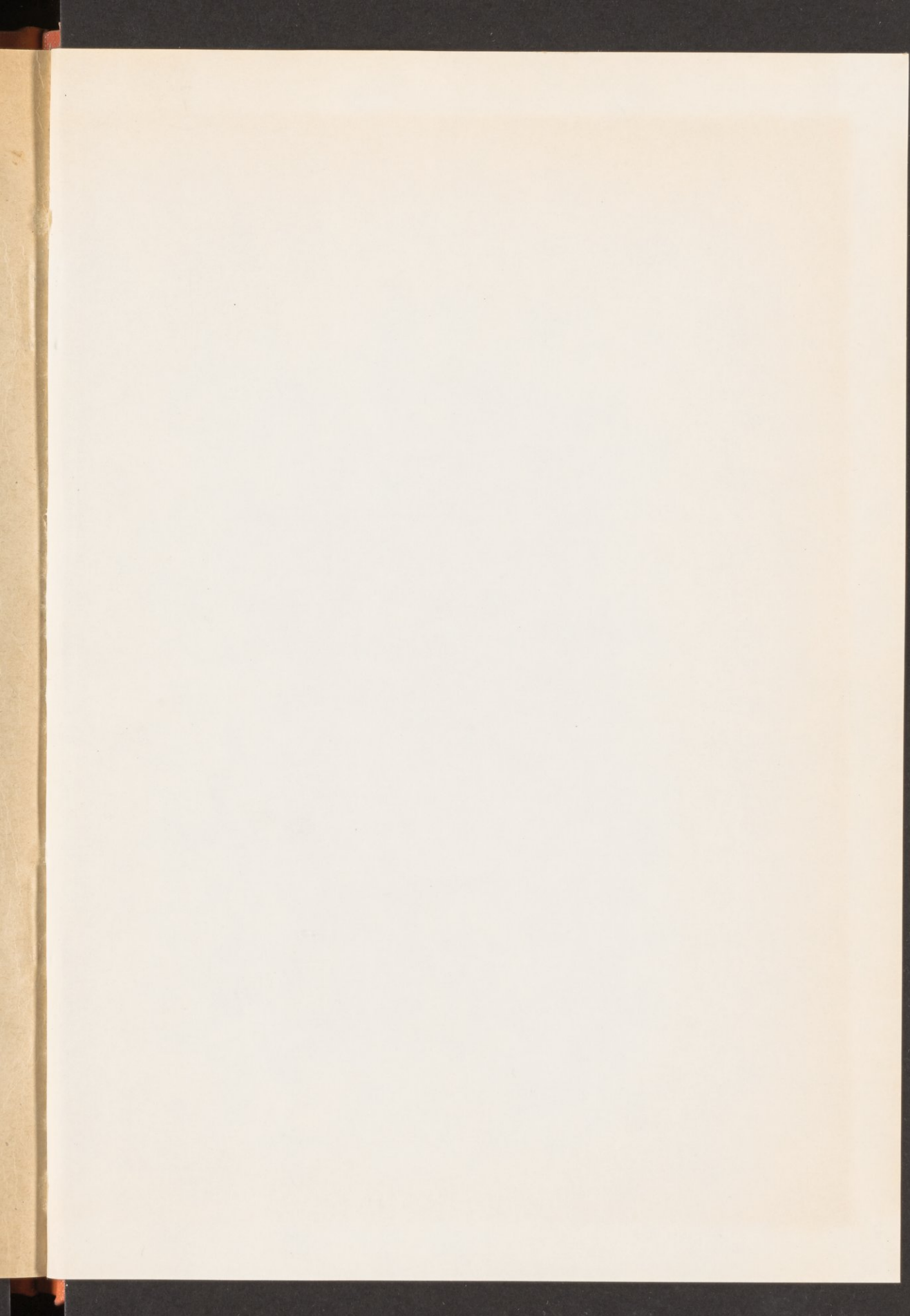


3 1142 02821 6706



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





جمال الدين عياد

نظم الحرب في الإسلام

الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠

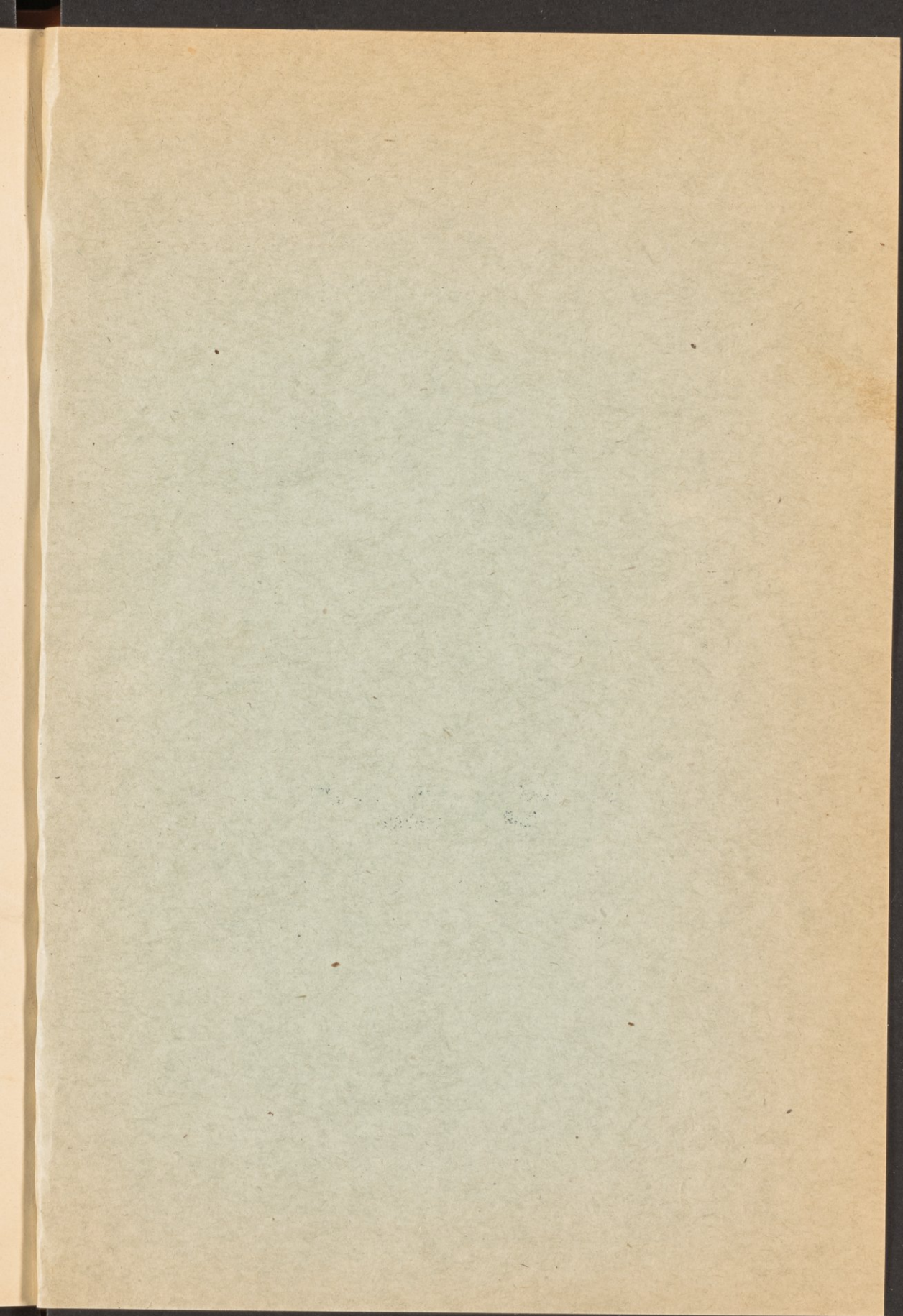
ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخانجي بمصر

مطبعة السنة المحمدية

• شارع غبط النوبى - القاهرة

ت ١٧ ٧٩٠



جمال الدين عياد
Ayyād, Jamāl al-Dīn.

Nuzum al-harb fi al-Islām

نظم الحرب في الإسلام

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

١٩٥٠

حقوق إعادة الطبع محفوظة للمؤلف

مكتبة جامعة القاهرة

• شارع غيط النوبى - القاهرة

ت ٧٩٠١٧

Near East

DS

62

.5

.Ag

c.1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين
« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم
من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم
فأولئك هم الظالمون » .

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
الملك القدوس
الملك القدوس
الملك القدوس
الملك القدوس
الملك القدوس

تقديم

فى مثل هذه الأيام من عام ماضى ، أصدرت الجزء الأول من بحثى هذا عن حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة . وقد تحدثت فيه عن نشأة الحكومة الإسلامية الأولى فى شىء من التفصيل ، ثم عن دستورهما الأغر فى شىء من الاجمال . فكان الجزء الأول مقدمة البحث وفاتحة القول .

واليوم أخرج للناس الجزء الثانى من « حكومة الرسول » بحثاً عن نظم الحرب فى الإسلام ، والذى أحب أن أقوله وأنا أقدم لهذا الجزء ، إني رأيت النظم الحربية للإسلام ، جوهرة صافية مجردة من طعن المتعصبين وكيد الجاهلين ، بعد ما كتبت هذا البحث .

رأيتها خير ما عرف الإنسان عن شرعة القتال .

رأيتها جماع المثل العليا والمبادئ الإنسانية .

رأيتها طريقاً إلى الامن والسلام ، ورد الظلم والعدوان ، وتحرير الأديان .

ثم نظرت إلى حروب الناس فى عصر العلم والمدنية فوجدتها جماع القسوة والوحشية ، والغدر والخيانة ، والنكث بالعهود ، والاستهانة بالشرف الدولى والكرامة الإنسانية .

ثم وجدت سلم اليوم وسيلة إلى الحروب وطريقاً إلى العدوان ! فأمنت أن حروب الإسلام خير من سلم هذه الأيام .

فهى حروب تلد السلام .

وسلم اليوم يلد الحروب !

وأيقنت أن العالم فى مسيس الحاجة إلى نظم الإسلام الحربية كى يجنب
الناس كثيراً من الويلات ، ويعيد للشرف الدولى والمبادئ الإنسانية نور الحياة
بعد أن أسكنها ظلمات القبور .

وإن اليوم الذى يدرس فيه العالم نظم الإسلام فى شتى مرافق الحياة ،
ويتخذها له شرعة ومنهاجاً ، هو اليوم الذى أسعد فيه واعتز به ، وأعلم أننى لم
أكن أنادى فى الصحراء ، وإنما كنت أنادى من يسمع القول فيتبع أحسنه .

جمال الدين عباد

كيف شرع القتال

كان القتال محرماً على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفة لا تطيق حرباً ولا قتالاً ، فلم يؤذن لرسول الله بالقتال ، وإنما أمر بأن يجاهد الناس بالحجة والبرهان والنصح والافتناع ، إذ هكذا أمره الله فقال « فلا تطع الكافرين وجاهدكم به » أى بالقرآن .

فلما اشتد عداؤ قريش أمر الله رسوله بالهجرة ، فهاجر بعد أن بايع نفراً من أهل يثرب على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم . ولم يلبث أن دخل أهل المدينة في دين الله أفواجا ، فلم يبق منزل إلا وفيه ذكر لرسول الله . وهذا زاد من بأس المسلمين ، فأصبحوا أهلاً للحرب والنزال . فشرع الله سبحانه وتعالى القتال . وقد جاءت شرعية القتال في خطوات عدة :-

(أولاً) احلّ الله لرسوله القتال بعد أن كان محرماً عليه ، فله ولأصحابه أن يجاهدوا أعداءهم بقوة السلاح إن شاؤا ، فالله كفيل بنصرهم وتأيدهم . وفي ذلك يقول تعالى :- « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد كان الإذن بالقتال أول العهد بالمدينة . فلقد روى عن ابن عباس أنه قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ... ليهلكن « فأنزله الله عز وجل « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . وليس بعجيب أن يأذن الله لرسوله بالقتال أول العهد بالمدينة ؛ فقد عاهده أهلها قبل الهجرة على أن يحاربوا من أجله الأحر والأسود من الناس .

وليس صحيحاً ما يقال من أن الإذن بالقتال كان آخر العهد بمكة ، فإن سياق الآية - كما يقول ابن القيم - يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم .
(ثانياً) فرض الله على المسلمين قتال الذين يقاتلونهم ، فقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلوا حيث تثقتموم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه . فإن قاتلكم فاقتلوا . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

(ثالثاً) ولما خرج اليهود على وثيقة الرسول صلى الله عليه وسلم أمره الله بقتالهم فقال « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانذروهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

(رابعاً) أمر الله المسلمين بقتال المشركين كافة ، وذلك بعد أن تملاً أهل الجزيرة مع قريش ، وتعاهدوا على حرب الرسول . فقال سبحانه « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

حكومة الرسول حكومة سلام

ولا يظن القارئ الكريم أن حكومة الرسول كانت تقرر الحرب والقتال بعد إذ نزلت تلك الآيات . فما هكذا أراد الله عندما شرع القتال ، ونظرة واحدة إلى أوامر الله تكفي لتثبت أنه لم يقصد بالقتال إلا رد العدوان .
وفي الآية الأولى لم يأذن لهم بالقتال إلا لأنهم ظلموا .
وفي الآية الثانية أمرهم بقتال من يقاتلهم دون من لا يقاتلهم .
وفي الآية الثالثة أمرهم بقتال اليهود لأنهم نقضوا ما عاهدوا الرسول عليه ، وخانوه والله لا يحب الخائنين .

وفي الآية الأخيرة أمرهم بقتال المشركين جميعاً لأنهم اجتمعوا على حرب المسلمين ، وخرجوا عن حيادهم إلى صفوف قريش يشاركونها عداها لدين الله .
فشعار المسلمين في قتالهم قول الله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله « ولا تعندوا إن الله لا يحب المعتدين » وقوله « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

وثمة حقائق ينبغي أن نبينها للقارئ الكريم قبل أن نمضي في حديثنا عن هذا الموضوع : -

« الحقيقة الأولى » أن أية قوة في الأرض إذا استطاعت أن تكبره الناس على كل شيء ، فلن تستطيع أن تكبرهم على الدين ، أو أن تلزمهم إياه وهم له كارهون ، فهي مهما سيطرت عليهم لن تملك منهم إلا السنة تردد ما تكبره

عليه من قول ، أو أجساداً تؤدي ما تجبر عليه من عبادة وتقديس . فأما القلوب والأرواح فلن تجد إليها سبيلاً . ولن تملك منها كثيراً أو قليلاً ، ولن تستطيع معها إكراها وتحويلاً .

الحقيقة الثانية أن الله سبحانه قد نهى رسوله الكريم عن أن يلح في دعوة من يعرض ويتولى . ومن أجل ذلك نزل القرآن يعاتب الرسول لما تصدى لنفر من أشرف قريش يلح في دعوتهم إلى دينه ، فقال سبحانه « فأما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ ! » وإذا كان الأمر كذلك فكيف لرسول الله أن يكره الناس على دين الله وقد عوتب لما تصدى لمن أعرض واستغنى ؟ ! .

ثم إن الله سبحانه قد قرر في هذه الآيات من سورة عبس أن رسوله الكريم لن يحاسب على إعراض الناس ، ولن يسأل عن كفرهم والحادهم . . . « وما عليك ألا يزكى ؟ ! » .

الحقيقة الثالثة أن الاسلام دين التفكير والتعقل ، والنظر والتدبر فهو يخاطب العقل ، فيدعو بالحكمة ، ويقنع بالحجة ، ويقهر بالبرهان ، ويجادل بالتي هي أحسن .

انظر إليه كيف يثبت أن القرآن من عند الله فينادي في الناس « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فيحاول الناس أن يأتوا بمثل القرآن فيعجزوا عجزاً مبيناً ، فينادي فيهم ثانيه « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » فيحاول الناس وقد خفف الله عنهم فلا يستطيعون ، فينادي فيهم ثالثه « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » فيحاول الناس من جديد وقد حسبوا الأمر يسيراً هيناً ، فإذا به ممتنعاً معجزاً . وما قصد الرحمن من هذه الآيات إلا أن يخاطب العقول فيدفعها إلى الإسلام دفعاً شديداً لا كرها وإجباراً وإنما اقتناعاً وإيماناً ، فليس لعقل يسمع هذا التحدى الصارخ ويرى من نفسه ذلك العجز الدليل ، إلا ويسرع إلى الإيمان اسراعاً . وقد دفعته الحجة وقهره البرهان ، ولم يكرهه رمح أو يحبره بثار !

واستمع للقرآن الكريم إذ يدعو إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، ليؤمن الناس بالله الذي خلقهن بعد تفكير وتدبر ونظر واقتران . استمع للقرآن في هذه الآيات « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ثم استمع للقرآن في هذه الآيات : « أفرايتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . . أفرايتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ . . أفرايتم الماء الذي تشربون . . أنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ . . أفرايتم النار التي تورون . . أنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » .

فما للناس لا يؤمنون ؟ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .
ثم ما لهم كيف يكفرون ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله

لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ! » . . أفلا يؤمنون بالله « الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ؟ .

هذه الآيات تدعوك يا أخى أول ما تدعو إلى النظر والتدبر ، والتفكير والتعقل . فاستجب لما تدعوك إليه ثم انظر ماذا تسمع وترى ؟ .

هل ترى إلا نفساً قد آمنت ، وقلباً قد اطمئن ؟ وهل تسمع إلا لساناً يردد قول الله تعالى « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ! » أو قول الاعرابى الحكيم « ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهّر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وانهار مجراه : إن فى السماء خبيرا . وإن فى الأرض لعبرا » ثم لتسائل نفسك بعد ذلك : « أفلا يدل هذا على اللطيف الخبير ؟ .

مثل هذا الإيمان هو الذى دعا إليه الإسلام بما قدمنا من آيات ، ذلك بأن إيمان العقل لا يذهب ولا يضعف مادامت للإنسان عين تنظر وعقل يفكر . بل يزداد على الأيام قوة كلما ازداد النظر والتفكير . فأما إيمان التقليد فانه أضعف من أن يصمد لكيد الشيطان ، ولو كان كيداً أوهى من خيط العنكبوت ! وأما إيمان الاكراه فانه النفاق بعينه . إنه الايمان الزائف الذى لا يعرف إلى القلوب سبيلاً . وحاشا لله أن يكون إيمان الناس بدينه إيماناً ضعيفاً أو زائفاً .

لقد حارب الاسلام العقول الراكدة التى لا تفكر ولا تعقل . وعاب أصحابها إذ عطلوا هذه النعمة الكبرى وهبطوا بأنفسهم إلى مستوى الحيوان الذى لا يجد عقلاً يفكر به ويتدبر . ومن يدري فلعله لو وجد عقلاً لفكر به وقدر ! حارب الاسلام هذا الصنف من الناس الذين إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله « قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ! أولو كان آبؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ! ومثل

الذين كفروا كمثل الذى ينفق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى فهم لا يعقلون » .

ولقد ضرب القرآن للناس مثلاً قصة إبراهيم ، إذ كان يهدى قومه بالحجة والمنطق ، ويدعوهم إلى النظر والتفكير ، ليكونوا من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي . وكان قومه نجامين فاطمأنوا إليه ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، ليمين لهم أنه شيئاً يتغير ويتحول لا يليق أن يتخذ إلهاً ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربي لأكون من القوم الضالين . وإنما أراد بذلك أن يصرف قومه عن هذا الضلال المبين ، ولكنهم لم يأبهوا له واطمأنوا لآلهتهم التى عابها ، وأظهر لهم نقصها وقصورها . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر . فلما أفلت قويت عليهم الحجة وأخذهم البرهان . ولكنهم لم يستجيبوا لداعى الحق ، وظلوا على آلهتهم عاكفين فقال لهم إبراهيم « يا قوم إني برىء مما تشركون » فما آمن إبراهيم بنجم أو شمس أو قمر ، وإنما أراد أن يبين لقومه كيف يكون الإيمان نتيجة الفكرة وثمره العقل ووليد النظر والتدبر . وتلك سنة الله فيما نزل من رسالات . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

* * *

تلكم هى الحقائق الثلاث التى ينبغى أن نقف عندها متأملين ، عند ما نتحدث عن موقف الحكومة الرشيدة من الإكراه فى الدين ، لنرى كيف أن الاسلام برىء مما يزعم المفكرون . فلقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تسود السلم والأمن والطمأنينة بين الناس ، فلم تكن تلجأ إلى الحرب إلا إذا

اضطرت إليها اضطراباً . ولستم جنحت للسلم تحمل بها مشا كلها مع العدو قبل أن يضطرها إلى حربه .

ألم تر كيف سالم رسول الله اليهود ووادعهم ، فأمنهم على دينهم وأموالهم وأرواحهم ؟ ثم ألم تر كيف كانوا يؤلبون على رسول الله ، ويجادلونه بغير الحق ، وهو يرد كيدهم باللين والحكمة وحسن السياسة حتى إذا بلغ السيل الزبي ، ولم يجد معهم لين ولا حكمة ، حاربهم ونفاهم من الأرض .

لقد حاولوا التفرقة بين المسلمين بعد أن جعلهم الله إخواناً متحابين ، فأرسلوا غلاماً منهم إلى الأوس والخزرج يذكّرهم بيوم بعثت ، يوم انتصرت الأوس على الخزرج ، ولم يقيم عندهم الغلام حتى أفسد بينهم فتواعدوا القتال وتنادوا « السلاح السلاح ! »

فانظر كيف كان موقف نبي الرحمة ورسول السلام . . . لم يزد عليه السلام على أن قال لأنصاره :— « الله الله ! أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم » وما سمع الأنصار هذا القول الحكيم حتى انتزعوا من قلوبهم العداوة والبغضاء وعادوا أشد ألفة وإيثارة . وهكذا رد عليه السلام كيد اليهود في نخورهم دون أن يصيبهم بسهم أو يضر بهم بسيف ! ولو قد أراد لفعل ، ولن يجد لأئماً أو عاتباً ، لأن القوم أرادوا له الشر ، واثمروا بأنصاره ليقبضوا فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم . فلا أقل من أن يجزيهم شراً بشراً « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ولكنه آثر الحلم وجنح للسلم فألف بين أنصاره بحسن سياسته وجميل حكمته . ولا عجب « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

وقد كان جديراً باليهود أن يكفوا عن سياسة العداة لما يجدون من تسامح

الرسول وغفوه وسمو سياسته ، ولكنهم أبوا إلا تعنتاً وفساداً فمضوا يجادلونه بالباطل ليفسدوا عقيدة المسلمين ويزعزعوا إيمانهم ، ولكن هيهات هيهات . . .

ولقد ظلوا على هذه السياسة عابدين اثنتين ، والرسول لا يجار بهم إلا بالحجة ، والمسلمون لا يناضلونهم إلا بقوة الإيمان . حتى إذا انتهى العامان بغزوة بدر الكبرى بلغت وقاحتهم غايتها ومنتهاتها إذ كشفت طائفة منهم عن عورة امرأة مسلمة ، فثار المسلمون لهذه الفحشة ، وغضب الرسول عليه السلام ، ولكنه آثر السلم في هذه المرة أيضاً ، فأرسل يحذرهم عاقبة ظلمهم ، عليهم يثوبوا لرشدكم ويرجعوا عن غيهم . ولم يجار بهم حتى كشفوا عن سواد قلوبهم وسوء نواياهم ، فتوعدوه بالحرب وأقسموا لو حاربوه ليعلمن أنهم الناس ! .

فانظر كيف كان عليه السلام يؤثر السلم حتى يدعو أعداؤه الى الحرب ! وهو يوم أرسل يحذر تلك الطائفة من اليهود لم يكن عاجزاً عن حربها ، وإما كان في قوة حربية ومعنوية تمكنه من سحقها لو أراد . فلقد عاد يومذاك إلى المدينة بعد أن هزم قريشاً في بدر . وهو بعد هذا الظفر لم يشأ أن يعاقب اليهود على بغيتهم قبل أن يحذرهم وينذرهم ، عسى أن يكون في التحذير والانذار رجوع إلى الحق ودرء للقتال . فهل بعد هذا حسن سياسة ولين جانب ؟ وهل بعد هذا جنوح للسلم ونفور من الحرب ؟

وإن نظرة واحدة إلى سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم مع بني النضير كافية لتؤكد ما قدمناه من حرص الحكومة الإسلامية الأولى على السلم ، ورغبتها عن الحرب . فلقد ائتمرت هذه الطائفة الآتمة من اليهود بالرسول الكريم لتقتله . والتآمر على قتل الرسول معناه التآمر بالدعوة الإسلامية . وهذه هي الخيانة العظمى والجريمة الكبرى التي لا تغفر . فلا أقل من أن يجار بهم الرسول فيقتلهم كما حاولوا قتله . ولقد حاربهم الرسول فعلاً . وليس بهمنا هذا الآن ، وإنما الذي يهمنا

أنه ما حاربهم إلا مضطراً ! فلقد كان يعمل جاهداً للسلم حتى اللحظة الأخيرة ،
ولقد أراد أن يعاقبهم على بغيهم هذا بغير السيف والرمح ، فأرسل يأمرهم بالجلاء
عن المدينة ، ولسكنهم أبوا إلا تكبراً وعناداً ، فرفضوا الجلاء وأرسلوا يسألونه أن
يصنع ما بدا لله !

و بربك أيها القارئ الكريم ما ذا يصنع الرسول إزاء هؤلاء القوم ؟ !
أيتركم ليفسدوا في الأرض بغير الحق ؟ أيتركم ليطلقوا نور الله والله متم نوره
ولو كره الكافرون ؟ أيتركم ليحاولوا قتله من جديد والله قد أراداه داعياً إليه
بإذنه وسراجاً منيراً ؟ !

لقد حاربهم الرسول بعد أن دعاهم إلى السلم فأبوه ، ولو قد كانت لهم عقول
يفقهون بها جلأوا عن المدينة بعد أن كشف الله عن خبثهم ولؤمهم ، ولو قد فعلوا
لما حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما نكل بهم .

ولئن كان بنو قينقاع وبنو النضير قد اضطروا الرسول إلى حربهم ، بنقضهم
عهده ، ورغبتهم عن موادعته . لقد كان موقف بنى قريظة مثل موقفهم ، فيه تحد
صارخ ونقص ظاهر . فلقد انضموا إلى الأحزاب يوم الخندق ، فأعلنوا على
رسول الله الحرب ونقضوا العهد . ولولا خدعة نعيم بن مسعود ، لما كفوا عن حرب
الرسول . فكيف لا يحاربهم وقد حاربوه ، وكيف لا يعاقبهم وقد خانوه ؟

لقد كانت هذه هي السياسة الحربية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم
مع اليهود . وهى كما ترى سياسة لا تعرف الحرب إلا حين تضطر إليه اضطراباً .
ولن نزداد بدراسة الحروب النبوية إلا إيماناً بهذه القاعدة . فموقف قريش من
رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى دفعه إلى حربها . فهى قد كانت حجر
عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية ، تحول بين صوت الحق وبين آذان تريد أن

تسمع ، وقلوب تريد أن تؤمن ، ونفوس تريد أن تهتدى . . وهى قد أخرجت المسلمين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! فإذا حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما يحارب قوماً بدءوه بالحرب والعداء ، فأذوه واضطهدوه ، وأخرجوه من وطنه ظالماً وعدواناً ولو قد تركوه ينشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، لما كان هناك حرب ولا قتال . ولكنهم وقفوا في وجه الدعوة ، فوقف في وجههم يناضل من أجلها حتى دخل مكة فاتحاً منتصراً .

ولقد عبر عليه السلام عن هذا المعنى الذى قدمناه يوم خرج إلى مكة معتمراً وسمع أن قريشاً قد لبست جلود النمر ونزلت بذى طوى تعاهد الله لا يدخل رسول الله مكة عليها أبداً . فلقد تألم عليه السلام لهذا الصمد عن سبيل الله فقال « يا ويح قريش ! لقد أهلكتكم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » . فهو عليه السلام كان يود لو أن قريشاً خلت بينه وبين نشر دعوته ، فلا يفرق فى سبيلها بين سيفه وغمده ، ولكنها أبت إلا صداً عن سبيل الله وكفراً به ، فلم يكن بد من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وإذا كان هذا خبر قريش ، فما خبر الفرس والروم ؟ لقد بدأت حكومة الرسول بحرب الروم عند حدود الشام فى مؤته وذات السلاسل وتبوك . ولقد سار الراشدون من أخلاف النبى على هذه السياسة حتى هزموا الروم والفرس جميعاً . فهل معنى ذلك أن الإسلام يقر سياسة الحرب من أجل نشر الدعوة ، وأنه انتشر بالسيف كما يزعم أعداؤه ؟

الحق إن الإسلام لم يجبر أحداً على اتباع رسالته ، ولم يتخذ القوة وسيلة إلى

نشر مبادئه . فلقد نص دستوره الحكيم على حرية العقيدة وحرم الإكراه في الدين . ولكن حرية العقيدة ينبغي أن تقرر للإسلام كما قررها هو لغيره من الأديان فإذا كان الإسلام قد كفّل للناس الحرية في اختيار العقيدة التي يشاؤون ، فليس ينبغي لأصحاب السلطة والنفوذ من أتباع العقائد الأخرى أن يحاولوا دون الدعوة إليه ، أو أن يفتنوا من يريد اعتناقه من أتباعهم ورعاياهم . فإذا حاولوا دون دعائه أو فتنوا أتباعه ، لم يكن بد من حربهم حماية لحرية العقيدة التي قررها ودعا إليها تلك الحرية التي اعترفت بها الأمم الحديثة في عصر العلم والمدنية ، وجعلت حمايتها آية التقدم ودليل النضج الانساني .

فحروب الإسلام ضد قریش والفرس والروم ، لم تكن حروباً تنشر العقيدة بالسيف ، وإنما هي تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة ويفتنون الناس عما تؤمن به قلوبهم وتطمئن له عقولهم .

وإن موقف الروم من رسول الله ، وموقف رسول الله من الروم خير ما نذكره في هذا المقام .

فلقد بدأ عليه السلام يدعو كبيرهم هرقل إلى دين الله ، فأبى أن يؤمن هو وكبراء قومه وإن كان قد أحسن الرد لأسباب سياسية في أكبر الظن .

ولقد أرسل عليه السلام بعض دعااته إلى ذات الطلحة على حدود الشام ، ليدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقتلهم أعداء الله من أتباع الروم إلا كبيرهم . كما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى عامل هرقل على بصرى من يدعو إلى الإسلام ، فكان جزاء داعية الرسول أن قتله أحد أتباع هرقل من بني غسان ! ولقد روى أن أحد قادة الجيش الرومي أسلم بعد سرية مؤته ، فساكن من هرقل إلا أن قبض عليه ، ثم أمر به فسجن على يعود إلى دين آبائه ، فله وجد منه إصراراً على دين الله قتله ! .

فالإسلام بدأ ينشر مبادئه بالحجة لا بالسيف ، ودعائه قد ذهبوا إلى حدود الشام مسلمين ، لا يبيعون حرباً وإنما نصحاً وإرشاداً ، فإذا بأعداء الله يقتلونهم ولا يبالون . والإسلام بعد ذلك إذا حاربهم يقال إنه انتشر بالسيف ، وإنما كان يكافح من أجل حرية العقيدة ، تلك الحرية التي حاول أعداؤه أن يحرموه منها بقتلهم دعائه وفتنتهم أتباعه .

ولو قد كان الإسلام يقر نشر الدعوة بالسيف وإكراه الناس على الدين ، لما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب إبله ومن أهل الجرباء وأزرح الجزية بعد أن انسحبت أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك . فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه . ولكن رسول الله أبى أن يحارب أهل الجرباء وأزرح وإبله لما وجد من جنوحهم للسلم . وكيف يحاربهم والله يقول « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » لقد سارع عليه السلام فكتب لهم كتب أمان أقرهم فيها على دينهم وأمنهم على أرواحهم وأموالهم ما داموا يعطون الجزية كما يخرج المسلمون الزكاة : والجزية ليست ثمناً يدفعونه لقاء إصرارهم على دينهم ، وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم . حتى لقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج « أن أبا عبيدة بعد ما صالح أهل الشام وجب منهم الجزية والخراج ، بلغه أن الروم قد جمعوا له واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضى الله عنه إلى أمراء المدن التي تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم : إنما ردونا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من المجموع . وانكم قد اشتراطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد ردونا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم » .

غاية الحرب في الإسلام

ويسير على كل باحث فيما جاء به الكتاب الكريم من آيات القتال أن يعلم غاية الحرب في الإسلام ، فإنما شرع الله القتال وأذن به لنبيه والمؤمنين كي يضع للبشرية مبدأ الحرية في العقيدة ، ذلك المبدأ العادل الحكيم الذي يكرم الناس ويسمو بهم كل السمو ، فلا يعطل نعمة العقل التي من الله بها عليهم ولا يكرههم على دين أو يجبرهم على مذهب ، وإنما يشعرهم بأن لهم عقولاً تفكر فتعرف الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الطيب ، وأن لهم بعد ذلك الحرية الكاملة التي تمكنهم مما يرونه حقاً ، وتؤمنهم مما يرونه باطلاً .

فإن الله سبحانه لم يأذن للمسلمين بقتال المشركين إلا لأنهم « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » فهم قوم قد أودوا في أنفسهم وأموالهم ، وأريد بهم التحول عما تملئهم عقولهم كرها وإجبارة ، ثم أخرجوا من ديارهم ظمناً وعدواناً . وكل الذي فعلوه إنهم قالوا ربنا الله !!

فهؤلاء المشركون من قريش أرادوا أن يسنوا للناس وأصحاب القوة والسلطان مبدأ الاكراه في الدين ، بما فعلوا بالرسول وأصحابه من الايذاء والاضطهاد والفتنة والاخراج . وليس بخاف على القارئ الكريم ما حدث لبلال الحبشي ، ذلك المؤمن الصادق الذي قذف به مولاه إلى الصحراء الملتببة وقد أثقله بصخرة لا يطيقها ، ثم تركه فريسة للحر والجوع والعطش حتى يموت أو يرتد عن دينه . وثن ترك الله قريشاً تفعل ما تريد من هذا الاكراه لظني الباطل على الحق ، ولطمس الظلام النور . فلم يكن بد من أن يأذن للرسول

وأصحابه بالقتال حتى يجعل الناس أحراراً فيما يختارون من الدين ، وحتى يذكر اسم الله في الأرض » ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .

فغاية الحرب في الإسلام أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فلا يدفع الناس إلى الإيمان بالله سوط سلطان ، أو يصددهم عنه فتنة باغ . ولا يكون في الأرض غير سلطان الله ، يهدي من يشاء إلى نوره ، ويصرف من يشاء عن طريق الرشاد . أما أن يكون الدين لغير الله من أهل الأرض يصرفونه كيف شاء لهم الهوى ، فيكروهون الناس في الدين ويصدونهم عما تطمئن إليه قلوبهم ، فذلك ما شرع الله القتال لأجله . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وليس من منطق الأمور أن يحارب الإسلام ليحجر العقائد ثم يقال إن الإسلام يريد أن ينشر دعوته بالسيف ! ولو قد كانت غاية الحرب في الإسلام نشر العقيدة وإكراه الناس على دين الله ، لما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتال الرهبان والشيوخ والنساء والولدان ^(١) ما داموا مسلمين ، لا يحاربون أو يعينون على الحرب بجهد أو عدة أو رأى . وإلا فلماذا يعفى هؤلاء مما يكره عليه الناس ، لو صح أن الإسلام يكره الناس كما يدعى المبطلون ؟ !

(١) مستفاد من مقال للاستاذ محمد البنا

علاقة المسلمين بالدول المجاورة

وينبغي لنا - وقد فصلنا القول في سياسة الاسلام الحربية - ن تشير إلى ما كتبه الماوردي في أحكامه السلطانية ، ثم ننظر رأينا فيه . فلقد قال « إن المشركين في دار الحرب صنفان : صنف منهم بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا منها وتألّبوا عليها ، فأمر الجيش مخير في قتالهم بين أمرين يفعل منهما ما علم إنه الأصح للمسلمين وأنكأ للمشركين من بياتهم ليلاً ونهاراً بالقتال والتحريق ، وأن ينذرهم بالحرب ويصافهم بالقتال .

والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الإسلام ، وقلّ أن يكونوا اليوم لما قد أظهر الله من دعوة رسوله ، إلا أن يكون قوم من وراء من يقاتلنا من الترك والروم في مبادى الشرق وأقصى المغرب لا نعرفهم فيحرم علينا الاقدام على قتالهم غرة وبياتاً بالقتل والتحريق ، وأن نبداهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم واعلامهم من معجزات النبوة وإظهار الحجة بما يقودهم إلى الاجابة فإن قاموا على الكفر بعد ظهورها لهم حاربهم وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوة^(١) » .

فالماوردي إذن يلخص علاقة الاسلام مع الدول المجاورة في أن قتالهم واجب متى دعوا إلى الاسلام وأعرضوا عنه . ولست أشك في خطأ هذا الفهم لحقيقة الاسلام وروحه الحربية . إذ أن معناه الاكراه في الدين والاجبار على العقيدة بقوة السلاح . والإكراه والاجبار أمران لا يقرهما الاسلام في دستوره الحكيم . ولقد رأينا فيما قدمنا من القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكره

أحداً على دينه ، وإن الله سبحانه لن يحاسبه على إعراض الناس ، بل إنه عاتبه لما تصدى لمن أعرض واستغنى ، فكيف إذا حارب من أعرض وألزمه الاسلام وهوله كاره !

إن الاسلام لا يبيح قتال الدول المجاورة لإعراضها عن دعاة الاسلام مادامت مسألة لا تقف في وجه الدعوة . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . والله تعالى يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرهوا وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » فأما إذا صدت دعاة الاسلام ، وحالت بينهم وبين الدعوة إلى الله ، أو فتنت من آمن بالله ورسوله ، فأخرجتهم من ديارهم ، أو حبست عنهم أموالهم ، أو قاتلتهم واضطهدتهم ، فإذا ذاك يبيح الاسلام القتال بل يجعله فرضاً واجباً ، حفاظاً على كرامة الانسان ، وتحريراً للعقائد والأديان « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فإذا صدت دولة عن سبيل الله ، وحاربها المسلمون حتى مكثوا لدعاتهم سبيل الدعوة ، لم يكن لهم أن يكرهوا أهلها على دين الله بل لهم أن يأخذوا الجزية ممن أعرض كما يأخذون الزكاة ممن آمن ، وأن يكتبوا معهم كتب صالح وأمان كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل ايله ، إذ كتب لهم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه امنه من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليوحنه بن رؤبه وأهل ايله سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر »

وقد تضطرب في نفس القارئ الكريم آية كريمة وحديث شريف إذا قرأها قراءة عابرة ونظر إلى ظاهرهما بدا له شيء من التناقض بينهما وبين آيات القتال في القرآن ، فإذا درسهما دراسة أعمق ، وفهم الظروف التي أحاطت بهما علم أن ليس في الأمر تناقض ولا اختلاف . فأما الآية الكريمة فهي قول الله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية الكريمة نزلت في شأن اليهود الذين نقضوا عهد رسول الله وألبوا عليه الأحزاب . فليست عامة لكل العصور إلا بهذا المعنى ، أي لسنا مكلفين بقتال أهل الكتاب في عصرنا ، إلا إذا فعلوا مثل ما فعل يهود المدينة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من السكيد للإسلام والتآمر به .

وأما الحديث الشريف فهو قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » فإن المقصود من الناس في هذا المقام مشركوا العرب ^(١) الذين بدءوا الرسول بالعدوان وأخرجوه من داره وماله بغير الحق ومن يفعل فعلهم في مختلف العصور ، كما أن المقصود بأهل الكتاب في الآية الكريمة يهود العرب أيام النبي خاصة ، ومن يكيد للإسلام مثل كيدهم على مصر العصور .

وليس أدل على صدق هذا الرأي من هذا الحديث الذي دار بين أبي بكر وعمر لما هم الأول بقتال المرتدين :-

(١) الشيخ محمود شلتوت ، القرآن والقتال ، ص ٣٣ .

- كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

- والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال .
فالناس الذين هم أبو بكر محبهم ، هم الناس الذين حاربهم رسول الله حتى أسلموا ، هم مشركوا العرب الذين أمره الله بقتالهم حتى قالوا لا إله إلا الله فجاءه عمر وحاجه فيهم بهذا الحديث .

الحروب الاسلحة .. والمبادئ الإنسانية

إن الباحث عن المبادئ الإنسانية في الحروب الحديثة يكاد يفقدها وسط زحام الوحشية القاسية والبغى المهلك والعدوان الأثيم . حتى ليكاد يشعر أن عهد الجاهلية الأولى قد عاد من جديد يفرض على الناس مبادئه فرضاً ، تلك المبادئ التي تجعل القسوة والظلم والعدوان عنوان الشجاعة والبطولة وآية الشرف والسيادة وليست الحروب الإيطالية الحبشية ببعيده حتى ننسى أحداثها التي أصابت الإنسانية في الصميم فهوت بها إلى الدرك الأسفل ورجعت بها إلى العصور الحجرية الأولى مسرعة كل الإسراع . فلقد عمد هؤلاء الطليان إلى الغازات السامة فملئوا بها الجو ليموت الأحباش خنقاً وإحراقاً وقذفوهم بالقنابل التي لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فما استطاعوا لها صداً ولا لأنفسهم وقاية ، ودمروا المستشفيات بهمة يحسدون عليها !

وهم هنالك في ليبيا قد فعلوا بالبطل الشهيد عمر المختار ما لا تفعله الوحوش الضارية . وكل جرمه أنه ناضل من أجل الحرية والكرامة الإنسانية ثنتين وعشرين سنة لا يمل ولا يكل ولا يهن ولا يلين ، فظل يطارد الطليان ألف معركة أو تزيد . وحارب قائدهم الداهية « جرازاني » في ثلاث وستين ومائتي معركة ، ولم يك يملك ما يملك من طائرات ومصفحات ، بل كان يحاربهم بالسيف والرمح من فوق الجياد ، وهو مع ذلك بطل لا تلين له قناة ! حتى إذا جمع الطليان جموعهم ، وحاصروا البطل الصنديد ، تصدى لهم مكافئاً مناضلاً ، فكرمهم الله بالشهادة ميمّة الأبطال ، إذ أسره الأندال وحكموا عليه بالاعدام ،

ونفذوا الحكم الظالم في وحشية يصفق لها الشيطان .
وأحلافهم من الألمان في الحرب العالمية الأخيرة قد دمروا مدينة بلغراد فأحلوها
إلى أكوام من الانقاض يتصاعد منها حريق النار ، وتطير بينها أشلاء النساء
والولدان بعد أن أطاحت بها القنابل والمتفجرات . والمدينة المنكوبة كانت مسألة
مكتشفة كما أعلنت حكومتها ، ولكنها الرحمة والشفقة في الصورة الحديثة
والطابع الجديد ! وإذا بحثت عن سبب هذا العدوان اشتد عجبك من قسوته وظلمه
فكل الذي كان أن الشعب اليوغسلافي لم يرض عن حكومته التي عقدت ميثاق
انضمام إلى دول المحور ، فأبدلها بأخرى . وللشعب الحق في أن يسيّر أوضاع بلاده
الداخلية كما يريد ، وليس لغيره أن يتدخل في شؤنه أو يحد من سلطته التي تقرها
الشرائع وترعاها القوانين ، ولكن الألمان أبوا إلا أن يتخذوا من هذا الانقلاب
الداخلي وسيلة إلى أطعامهم الخارجية « أن الذي يصعب فهمه - كما يقول
الدكتور عوض بك - أن الاستياء من حادث داخلي في دولة من الدول يؤدي
حتمًا إلى تخريب عاصمتها وإزهاق الآلاف من الأرواح البريئة »

وإن تعجب فعجب خبر هذه الذريات ، التي ما كاد يخترعها العلماء ،
ويعلمون فتسكها الذريع بيني الإنسان ، حتى سارعت أمريكا الباغية تُصلي بها
اليابان فتحدث ببعض مدنها ^(١) تخريباً ودماراً ، وإزهاقاً للأرواح لم تعرف له
الإنسانية مثيلاً من قبل . وإني لأعلم أن هناك جماعة من الناس يجتمعون في
أمريكا أيام هذه الذكرى الأليمة من كل عام يبيكون صنع الإنسان بأخيه الإنسان !
وهذه الأمثلة التي قدمت أقل من أن تصور فكرة الاجرام والوحشية التي امتلأت
بها الحروب في القرن العشرين ، قرن الرق والمدنية . والروابط الانسانية ! ولكني

(١) هيروشيما ونجازاكي .

أخشى أن تمل نفس القارىء ويقشعر بدنه من الحقائق المرة المؤلمة .
فما ذنب الأمنين في دورهم وأوطانهم ، حتى تدمر بهم الدور وتذك من حولهم
الأوطان ؟ .

وما ذنب الوليد حتى ييتم وهو بعد لا يقوى على الكلام ؟ ! .
وما جرم الأم حتى ترمي وما رحلت إلى ميدان ؟ ! أفهم أن يصاب الجندي
في المعركة أو أن تدمر مصانع الأسلحة ومخازن الذخيرة وكل ما يمكن الجندي من
القتال ، ولكن الذي لا أفهمه أن ييتم الأطفال وترمل النساء وترهق أرواح
الشيخوخ والضعفاء ، وأن يقتل ويحرق في الحرب العالمية الأولى وحدها « ٢١ »
مليوناً من الأنفس « البشرية » التي لم ترع للبشرية حقاً ولا كرامة ، والتي
لا تفرق بين الجندي في الميدان ، وبين الأم التي ترضع وليدها ، أو الشيخ الذي
يتعبد في مصلاه ، أو الطالب الذي يقبل على درسه .

ولست أفهم أن ينحدر الزعماء إلى صفوف القتلة السفاكين . فنسمع عن
هتلر زعيم ألمانيا ، الذي كان يريد أن يبوأ أمته المسكان الأول من العالم المتحضر
يسعى إلى اغتيال دلفوس زعيم النمسا المرة تلو المرة ، حتى يخلو له وجه النمسا
فيضمها إلى جوفه المتعطش إلى الظلم والاستعمار .

ولست أفهم أن يسعى هذا الزعيم إلى اختطاف « هاشا » زعيم تشيكوسلوفاكيا
فيستدرجه إلى ألمانيا ، حتى إذا بلغها أسره وأملى عليه شروطه المجحفة بعد أن
هدده بألوان الذل والنكال إذا هو لم يذعن لما يريد .

ولست أفهم أن يأتي الفرنسيين إلى بلادنا فيدخلونها غصبائهم لا يرعون
لديننا حرمة فيتخذون من الأزهر الشريف مكاناً تبول فيه خيولهم ! .

نم لا أفهم بعد ذلك أن تشهد فلسطين في هذه الأيام ألواناً من الوحشية أطاح
بها اليهود الأندال وجه الإنسانية فصبغوه بالسواد . وهل أشنع من أن تبقر بطون

الجبالي ، فيموت الجفنين قبل أن يخرج من بطن أمه ، وتموت الأم قبل أن تسعد بوليدها الذي حملته وهنا على وهن !! أقسم لو أن الحجارا تعقل لتفجر منها ماء الرحمة دفاقاً ، ولسكنها الإنسانية في عصر العلم والمدنية ! فلنحني رؤوسنا لعصر العلم والمدنية .

هذا كله - وهو قليل من كثير - لا أفهمه ولا أعقله حتى لا أكاد أنكره كل الإنكار لولا أن يصفعني الأمر الواقع فأؤمن بالحقيقة المرة .

إن من ينظر إلى الحاضر المائل أو الماضي القريب فتؤلمه وحشية الحروب وفك الإنسان بأخيه الإنسان ، لن يجد شفاء من الألم الذي ألم به حتى يقرأ عن نظم الحرب في حكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فيرى الإنسانية بأكمل معانيها ، ويلبس البشرية بأكرم صورها . . وإذ ذاك يذكر أن هناك نبيا بعثه الله للناس كافة : فبلغ رسالات ربه : ينشر السلام ، ويحرر العقائد ، ويكرم الإنسان ، ويجعل للحروب رسالة سامية لا تقوم إلا بها ، ثم يحلها بأداب وفضائل تسكاد تذهب بشرها وتطفئ ناراها . لقد كان عليه السلام كلما أرسل جيشاً قال « سيروا باسم الله وفي سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، ولا تمثلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً » وقد نهى في غزوة أحد عن قتل أعمى ، سلك في حائط لبعض المنافقين فقام يحشو التراب في وجوه المسلمين ويقول لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله ! فارتفعت سيوف الصحابة فوق عنقه تريد أن تهوى عليه لولا أن قال لهم رسول الله « لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر » . وفي غزوة خيبر أهدت امرأة يهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، شاة مشوية قد أكلت السم في ذراعها لما علمت أن الذراع أحب اللحم إلى رسول الله . فلما انتهش من ذراعها علم أنه مسموم فأخرج الأكلة من فيه . وقال

« اجتمعوا إلى من هنا من اليهود » فجمع اليهود . فقال لهم : إني سألتكم عن شيء فهل أنتم صادق فيه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، فقال لهم . من أبوكم ؟ قالوا : « أبونا فلان » قال « كذبتكم أبوكم فلان » قال « صدقت وبررت » قال « هل أنتم صادق عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا « نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا » فقال : « من أهل النار ؟ » قالوا « نكون فيها يسيراً ، ثم نخلفوننا فيها » فقال لهم رسول الله « اخسئوا فيها فوالله لا نخلفكم فيها أبداً » ثم قال « هل أنتم صادق عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا « نعم » قال « أجمعتم في هذه الشاة سماً ؟ » قالوا « نعم » قال « فما حملكم على ذلك ؟ » قالوا « أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك . وإن كنت نبياً لم يضرك . وجيء بالمرأة إلى رسول فقالت « أردت قتلك » فقال « ما كان الله ليلسطك على » فقال أصحاب رسول الله « ألا نقتلها ؟ » فقال لهم « لا » . وقد ذكرت بعض الروايات أنه أمر بقتلها بعد أن علم بوفاة بشر بن البراء بن معرور من جراء أكلتها . وسيان عندنا أقتلها آخر الأمر أم لم يقتلها فهذا أمر لا نبحت فيه الآن . وإنما الذي يعيننا أنه لم يقتلها وبشر على قيد الحياة ، بيد أنه يمقت الغدر وينكل بالخائن . وإن فعلتها لتشبه فعلة بنى النضير ، فكل حاول قتل الرسول وإن اختلفت الوسيلة . هؤلاء يريدون أن يقدفوه بالرحا ، وهذه تدس له السم في الطعام . وقد حرق الرسول نخل بنى النضير ، ونفاهم من الأرض بعد أن أخذ أموالهم وأسلحتهم اغدرهم به . ولما لم يفعل شيئاً باليهودية لما غدرت به ، ومن هذا يتبين لنا مقدار نهيه صلى الله عليه وسلم عن قتل المرأة والتمثيل بها .

ولما جاء مكرز بن حفص ليفدى سهيل بن عمرو ، وكان من أسرى بدر ، أراد عمر بن الخطاب أن ينزع ثنيتيه قبل أن يطلق سراحه ، فيداع لسانه ،

ولا يقوم على رسول الله خطيباً في موطن أبداً . ولكن الرسول نهاه عن ذلك ، فقال « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ! »

وقد رأت سودة بنت زمعه زوج الرسول أحد أسرى بدر وقد جمعت يدها إلى عنقه ، فرق قلبها لحاله ، وساءها ما أصبح فيه من ذلة وهوان ، فخاطبته قائلة : أيا أبا يزيد : أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ! إلا متم كراماً !! فعجب الرسول من أمرها ، وقال غاضباً : « ياسودة أعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرضين ! فقالت : يارسول الله : والله الذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعته يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت . فما كان من رسول الله إلا أن قال لأصحابه « استوصوا بهم خيراً »

ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفهى عن التمثيل بالعدو ، فقد كانت قریش تبجح ذلك لنفسها . فلم تكن تسقى أن ترد البر بالسوء ، والعطف بالقسوة ، والإنسانية بالوحشية ، ولسنا نفتري عليهم أو ندعى كذباً . فهذا يوم أحد شاهد عليهم ، بل وهذه بطن حمزة أسد الله وأسود رسوله تشهد أنهم بقروها ، وهذه كبده تشهد أنهم مضغوها ، وهذه أذنه تشهد أنهم قطعوها ، وهذا أنفه يشهد أنهم جدعوه . فلا حول ولا قوة إلا بالله . لقد حزن رسول الله لمقتل حمزة ، وامتلأ قلبه الشريف حقداً على قریش عندما مثلوا به ، حتى لقد هم أن يمثل بثلاثين منهم إن أظهره الله عليهم يوماً . لولا أن نزل الوحي من السماء يحمل هذا الأدب الخالد ، الذي يريده الله لرسوله والمؤمنين « وإن عاقبتهم فمقابلوهم بمثل ما عاقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تلك في ضيق مما يمكرون » وما سمع الرسول هذه الآية الكريمة حتى تأدب بأدب الله واستغفره ونهى أصحابه عن المثل .

ولقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن تجنب المدنيين
 ويلات الحرب ، فنهت عن قتل الوليد والمرأة والأعمى كما قدمنا القول ، إلا أن
 المدني إذا انقلب عسكرياً أوجبت حربه ولو كان امرأة أو شيخاً . فلقد حدث
 يوم الفتح أن كتب حاطب بن بلتعنه كتاباً إلى قريش يخبرها فيه بمسير الرسول
 صلى الله عليه وسلم إليها ، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جملاً على إن تبليغه قريشاً ،
 فجعلته في قرون في رأسها ثم خرجت به ، فلما بلغ الرسول ذلك أرسل علياً
 والزبير فقالا انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فإن بها طعية معها كتاب إلى قريش ،
 فانطلقا على الزبير حتى إذا بلغا المرأة استنزلاها وقالا معك كتاب . فقالت مامعني
 كتاب ، ففتشا رجلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها على كرم الله وجهه ، أحلف
 ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب
 أو لنجردنك » فلما رأت الجدم منه قالت : أعرض فأعرض فخلت قرون رأسها
 فاستخرجت الكتاب منها فدفعتها إليهما فأتيا به رسول الله . واؤكد أن المرأة
 لو امتنعت عن أن تخرج الكتاب لجرداها ، ولو امتنعت بعد تجريدها لكان
 لهما معها شأن آخر ، فلربما قتلها أو أسراها أو ضرباها حتى تعطيها الكتاب .
 لأنها والحالة هذه لم تعد مدنية مسالمة ، وإنما أصبحت مجندة محاربة تكيد للإسلام
 والمسلمين . فينبغي أن تعامل كما يعامل المحارب . ولقد روى ابن عباس عن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر بامرأة قتيل في يوم الخندق فقال : من قتل
 هذه ؟ قال رجل أنا يا رسول الله ، قال : ولم ؟ قال نازعتني فأثم سيفي : فسكت
 عليه السلام .

وهو عليه السلام لم يكن يقذف الحصون أو يضرب المدائن إلا إذا امتنعت
 عن التسليم وكادت له من خلف أسوار الحصون . فهو لم ينصب على أهل الطائف

المنجنيق إلا عندما تحصنوا وقذفوا المسلمين من أعلى حصونهم بالنبل، ولقد أعلن عليه السلام يوم ذاك أنه معتق من جاءه من الطائف، ففر إليه عشرون رجلاً .
فالإسلام لا يحارب المدنيين إلا إذا انقلبوا محاربين كما فعلت المرأة التي نازعت رجلاً من المسلمين قائم سيفه يوم الخندق ، والمرأة التي همت بإفشاء أسرار المسلمين العسكرية يوم الفتح ، وإلا إذا اختلطوا بالمحاربين أو اختلط بهم المحاربون في حصن أو مدينة محصنة ، كما فعلت ثقيف يوم الطائف ، إذ يصعب بل يستحيل - والحالة هذه - النيل من المحارب دون أن يصاب المدني الآمن .
وإن الدروس التي تلقاها الصحابة في المدرسة الإسلامية الأولى أيام حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم هي التي أملت على الصديق أبي بكر رضي الله عنه قوله يوم ولي الخلافة وبعث جيش أسامة : - « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . » وهذه الفقرة التي يصور فيها الصديق رضي الله عنه - هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في القتال ، إنما تبين لنا مقدار حرص الإسلام الحنيف على إشاعة المبادئ الإنسانية في الحروب تلك المبادئ التي يكاد يفقدها الباحث اليوم بين زحام الوحشية القاسية كما قلت في أول الحديث ، إن في تاريخ الإسلام قصة هي أشهر من علم في رأسه نار ، ولكننا نسجلها ونحدث الناس بها المرة تلو المرة لأن فيها من آيات الرحمة والإنسانية والصفح الجليل ما يعجز عن وصفه القلم ولو ملك زمام البلاغة وأوتى إمارة البيان . تلسمكم هي قصة الفتح . .

يوم جاء رسول الله مكة فاتحاً بعد أن خرج منها طريداً ، فخطب أهلها

قائلا : يامعشر قريش ! ما ترون إني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم ،
وابن أخ كريم ، قال : فاني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم
اليوم ، اذهبوا فانتم الطلقاء !!!

أى عفو هذا وأى صفح ! هذه قريش أمامه ذليلة مهانة ... قريش التي
أذته واضطهدته ، واثتمرت به لتقتله ، ثم أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم
وغزته في المدينة غير مرة ... إنها اليوم أمامه يستطيع أن يفعل بها مثل ما يفعل
الناس في هذه الأيام بمن يسمونهم مجرمي الحرب ... ولكنه العفو الجميل ،
والصفح الخالد .

العُهود والمواثيق

إن ما قلته عن المبادئ الانسانية في هذه الأيام أستطيع أن أقوله عن العهود والمواثيق ، فإن الدول اليوم قد نسيت الشرف والوفاء كما نسيت الرحمة والانسانية ، وآمنت بنقض العهود وخرق المواثيق كما آمنت بالقسوة والوحشية ! حتى لقد أصبحت العهود نفسها مقدمات للعدوان والمعاهدات وسيلة القوى ينال بها من الضعيف ! وحسبي في هذا المقام ما فعلته انجلترا الجريمة بمصر . فلقد وعدتها بالجلاء أكثر من سبعين مره ... وما كانت تعد إلا لتنقض أو لتخذر أعصاب المجاهدين من أبنائها ، كي تنسبهم جرمها وتقدم عن جهادها . فلقد صرح جلادستون رئيس وزراء انجلترا في مجلس العموم في ١٨ يولييه سنة ١٨٨٢ أن ليس لبريطانيا مطامع في مصر ، وهي تنوى بكل تحقيق أن تعرض على الاتفاق الاوربي تسوية المسألة المصرية تسوية نهائية . كما صرح في الثاني عشر من أغسطس من نفس السنة أن « ليس في نيتنا مطلقاً أن نحتل مصر ، وإذا كان هناك شيء لا نقدم عليه فهو ذلك الاحتلال لأن فيه مناقضة للمبادئ التي أعلنتها حكومة جلالة الملكة ، وللعهود التي وعدتها لأوربا » وفي الرابع عشر من اكتوبر سنة ١٨٩٥ أعلن « السير » شارل ديكل وكيل الخارجية البريطانية « أن الاحتلال الانجليزي مصدر ضعف لانجلترا ، وحيث أننا لا نرى أية مصلحة في البقاء بمصر ، فلا يوجد سبب يمنع جلاءنا عنها !! » وفي الرابع عشر من يناير سنة ١٨٩٦ أرسل جلادستون إلى الزعيم مصطفى كامل رحمه الله يقول « إن زمن الجلاء على ما أعرف قد حل منذ بضع سنوات ... ! » وحتى اليوم ... وبعد تسعة وستين عاماً من دخول الانجليز مصر ، ومن وعدم إياها بالجلاء عنها ، لم نر جلاءً أوشيكاً يشبه

الجللاء ! بل أن شباب مصر كلما ذكروها بحقهم أو بوعودها ، فنادوا بالحرية والاستقلال وحاربوا الظلم والطغيان ، لم يكن جزاؤهم إلا نكالا ودمارا ! حتى لقد اقتحم الانجليز الأزهر الشريف يقذفون من احتفى به من دعاة الحرية وأنصار السكرامة الإنسانية بنيران المدافع والبنادق ، فلم يرعوا لبيت الله حرمة ، ولم يجعلوا للوطنية ودعاتها كرامة أو مقاما . وتاريخ الانكليز في مصر حافل بالغدر والإجرام ، والظلم والوحشية ! فليست أحداث دنشواي ، والبدرشين ، والشوبك والعزيرية وغيرها بخافية على متتبع الحركة الوطنية في مصر الحديثة . أنها كلها دليل على أن الشرف الدولي قد ضاع في هذه الأيام . وليست انجلترا وحدها هي التي ضاع شرفها ، فإن كثيراً من دول أوربا اليوم تجعل نقض العهود وخرق المواثيق وإذلال الأحرار جزء من سياستها وفكرة من برنامجها فلقد حدث في الحرب العالمية الأولى أن أغرق الألمان الباخرة الانكليزية الكبيرة لوزيتانيا عند الساحل الايرلندي الجنوبي ، فغرق ركابها وكان بينهم أكثر من مائة أمريكي ، فاحتجت أمريكا وتبادلت مع ألمانيا المذكرات حتى تعهدت الأخيرة سنة ١٩١٦ بأن لا تغرق سفينة تجارية قبل أن تنذرها وتعمل على سلامة ركابها ... ولكن الألمان لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم بعد عام واحد فأعلنوا أن غواصاتهم سوف تغرق كل سفينة تجارية دون أن تنذرها أو تعمل على سلامة ركابها ، أو تفرق بين سفن الدول الحاربة وسفن الدول المحايدة ! ولعل تلك المعاهدة التي فرضها هتلر على هاشا زعيم شيكوسلوفاكيا في الحرب العالمية الأخيرة بعد أن استدرجه إلى ألمانيا أكبر دليل على أن المعاهدات أصبحت وسيلة القوى إلى النيل من الضعيف كما قدمت فاذا حاول المستضعف أن يشكو أو يعترض قيل له إن بيننا معاهدة يجب احترامها والعمل بها ! .

وأؤكد أن ما عرفه الحلفاء عن نكث هتلر للعهود كان دافعاً لهم إلى رفض ما عرضه عليهم من الصلح بعد تسليم فرنسا بشهر « حتى أن بعض الساميين من الانجليز - كما يقول الأستاذ العقاد - كان يخطب في تحييد الصلح العاجل ويفند أسباب الحرب فأوشك أن يبلبل أذهان سامعيه لولا أن تصدى له سائل بسؤال موجز لا يتجاوز أربع كلمات : هل تثق بعهود هتلر ؟ فكانت فصل الخطاب » إن خير ما يبين لنا قيمة المعاهدات عند دول اليوم قصة المستشار الألماني في بداية الحرب العظمى .

فلقد كانت بروسيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، والنمسا ، والمجر ، وروسيا قد اتفقت سنة ١٨٣٩ على احترام حياد بلجيكا : وأكد مؤتمر السلام الدولي في لاهاي سنة ١٩٠٧ وجوب احترام الدول لحياد الدولة المعترف بحيادها ، فلا تدخل دولة ما أرضها ، ولا تتخذها ممراً لجنودها ووقعت ألمانيا على هذا القرار كما وقعه غيرها من الدول العظمى ولكنها لم تلتزم أن أرسلت إلى بلجيكا مذكرة شديدة اللهجة تطلب فيها السماح لجيوشها بالمرور من الأراضي البلجيكية حتى تتمكن من حرب فرنسا . فكان طبعياً أن ترفض بلجيكا هذا الطلب الجائر الذي ينتهك حرمة حيادها ، لأنها - على حد تعبيرها لألمانيا ، إذا قبلت ذلك الطلب ، أضاعت شرفها وكرامتها وأخلت بالتواجب العظيم المقدس نحو أوروبا بأسرها .

والذي يهمنا هو الذي حدث بعد هذا ، فلقد احتجت إنجلترا على سياسة ألمانيا ، وأندرتها بالحرب إذا لم تعدل عن خرق حياد بلجيكا ، فكان جواب المستشار الألماني ما نسجله آسفين لضياع الشرف الدولي : - « ان من الهول ما تنويه حكومة جلالة الملك البريطاني . ومما يعز على أن أنصور جلالته قابلاً دخول الحرب مراعاة لقصاصة ورق يسمونها معاهدة واتفاقاً على حياد أرض !!! »

وكم من مرة خرقت حرمة مثل هذا الحياد إجابة للضرورات العسكرية !!! » ثم لم يلبث أن أعلن المستشار في مجلس الريشتاغ قوله « أن الضرورة احدثت بنا والضرورة لا تعرف شريعة ولا تعترف بنظام !!! »

وإذا كانت الضرورات الحربية قد أصبحت تنسك في هذه الأيام الشريعة والنظام ، وتقر الفوضى وقانون الغابة .

ثم إذا كانت العهود والمواثيق قد أصبحت « قصاصات ورق » كما يقول مستشار الإمبراطورية الألمانية « بتان هلفيج » فأنا لا نعجب من نكثها ولو كان النكث قبل جفاف المداد !

لكننا نسجل الذي قدمنا من القول ، ثم نتبعه بموقف الحكومة الإسلامية الاولى من العهود والمواثيق كي يقارن القارئ الكريم بين الموقفين وينظر كيف تتميز بضدها الأشياء ...

لقد كان عليه السلام أحرص ما يكون على الوفاء بعهده ، والعمل بميثاقه . فما عاهد قوماً ونقض ، وإن كان قد عوهد وغدر به المرة تلو المرة ! وإنما كان هذا الادب الخالد من عند الله سبحانه ، فهو الذي علم نبيه الوفاء وحرّم عليه النكث فقال « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً . » وقال « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »

وقد ردّد عليه السلام هذه المعاني السامية في أحاديثه فقال « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء » وقال « ما نقض قوم العهد إلا أدبيل عليهم العدو » وقال « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته » . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه

وسلم المثل الأعلى في البر والوفاء عندما عاهد قريشاً في سنة الحديبية على وضع الحرب عشر سنين ، وردّ القرشيين الذين يأتونه مسلمين ، إذ أنه وادعهم حتى بدءوه بالحرب . فقد كانت خزاعة وبنو بكر على شيء كبير من العداء ذهبت حدته بعد صلح الحديبية ، فانضمت احدهما « قبيلة خزاعة » إلى رسول الله . وانضمت الأخرى « بنو بكر » إلى قريش . ولما كان خالد قد رجع من سرية مؤته دون أن يحرز نصراً ، فقد ظن بنو بكر بالمسلمين ضعفاً ، ووجدوا في ذلك اسنح فرصة للقضاء على خزاعة ، فخرجوا بتحريض عكرمه بن أبي جهل القرشي ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، فسارع رجل من خزاعة يدعى عمرو بن سالم إلى رسول الله صلى الله وسلم يشكروا إليه نقض قريش وبنى بكر العهد ، ويسأله النصرة والمعونة . فوعده الرسول النصرة وعزم على محاربة قريش وفتح مكة . فهو صلى الله عليه وسلم لم يحاربهم إلا بعد أن حاربوه ، ولم ينقض العهد إلا بعد أن نقضوه ، شأنه في كل عهد وميثاق . ثم انه - والعهد يكتب - جاءه رجل من قريش يدعى أبا جندل يريد الإسلام ، فرده إلى قريش والرجل يذوب حسرة ويقول يا معشر المسلمين ارد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ! ألا ترون ما لقيت ؟ . فيقول له الرسول « يا أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً واعطيناهم على ذلك وأعطونا ، عهد الله وإنا لا نقدر بهم » وقد جاءه رجل يدعى أبا رافع موفداً من قريش ، فأسلم وقال « لا أرجع إليهم » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم « إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد . أرجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع » وقد جاءه أبو بصير مسلماً فارسلت قريش في طلبه رجلين يذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعهد الذي بينهما ، فدفع الرسول أبا بصير إليهما ،

ولكنه تحايل حتى قتل احدهما . وهم أن يقتل الآخر لولا أن فر راجعاً إلى مسجد رسول الله في المدينة . فقال الرسول لما رآه : « لقد رأى هذا فزعاً » فقال الرجل « قتل والله صاحبي وإني لمقتول » ولما جاء أبو بصير قال « يا بني الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم فأوفاني الله منهم » ولكنه سمع من الرسول كلمات عرف منهم أنه سوف يرده . فخاف أن تهلكه قريش ، وسارع إلى ساحل البحر . وانضم إليه أبو جندل وكل من خرج من قريش مسلماً ورد . وكون الجميع عصابة تخرج إلى قوافل قريش فيقتل رجالها وتسلب أموالها . فأرسلت قريش إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يؤوى من يأتيه منها مسلماً ولا يرده حتى لا يفعل مثل ما فعل أبو بصير ، فيضيع عليها مالها ، ويقطع طريق تجارتها . فقبل الرسول ذلك وانزل الله تعالى قوله « وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وكف أيديكم عنهم ، ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » ولم يكن هذا الشرط من عهد الحديبية نافذاً على النساء . فقد جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط تريد الإسلام ، فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبانها من رسول الله ، فأبى ذلك عليهما . وقد جاءت سبيعة الأسلمية مسلمة فخرج زوجها في طلبها ، فاستحلفها رسول الله أنها لم تخرج بغضاً لزوجها أو لحدث أحدثته في قومها وإنما رغبة في الإسلام ، فحلفت . فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم مهرها إلى زوجها ولم يردّها عليه لأنها لا تحل له بعد إيمانها إذ تحرم الشريعة الإسلامية زواج المسلمة من غير المسلم كما تحرم زواج المسلم من المشركة . وفي ذلك يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . الله أعلم بإيمانهن : فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار . لهن حل لهن ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ،

ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلك حكم الله
يحكم بينكم ، والله عليم حكيم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عاهد قوماً فنقض بعضهم العهد ،
ورضى البعض الآخر بذلك فأقروهم على ما فعلوا وحرصوهم على العدوان عدهم
كلهم ناقضين كما فعل بأهل مكة عندما نقض بنو بكر العهد بتحريضهم .

وكان عليه السلام إذا عاهد قوماً فتحالفت فئة ، وتحالفت مع عدوه فئة
أخرى ، ثم اعتدت الفئة التي انحازت إلى عدوه على الفئة التي انحازت إليه فكأنما
اعتدت عليه . ولهذا غضب لاعتداء بني بكر على خزاعه وحاربها .

الفضيلة في حروب الاسلام

أن المتتبع لحروب الرسول صلى الله عليه وسلم والباحث عن أسبابها ودوافعها يدرك في سهولة ويسر أن الدين هو أصل الجهاد في الإسلام أو أن تحرير العقائد وتأمين الدعوة إلى الله وردع البغاة المعتدين هو الغاية من حروبه .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث بهذا الدين ليتمم مكارم الأخلاق ، فهل تظن أن جنود الإسلام ينسون الدين والخلق والفضيلة عندما يدعون ليقاتلوا في سبيل الله ، وهم إنما يحاربون من أجل الدين والخلق والفضيلة ؟ . إن الحروب الإسلامية لم تكن تحول بين المسلمين والصلاة . وقد كان عليه السلام يجمع الصلوات في وقت واحد إذا حبسه المشركون عنها وظل كذلك حتى نزلت صلاة الخوف بعسفان كما يقول أبو عياش الزرقى في حديث له « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان فصلى بنا الظهر ، وعلى المشركين يومئذ خالد بن الوليد . فقالوا لقد أصبنا منهم غفلة . ثم قالوا : إن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أموالهم وأبنائهم فنزلت صلاة الخوف بين الظهر والعصر ففرقنا فرقتين وفي هذه الصلاة يقول أبو هريرة رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلاً بين ضجنان وعسفان محاصراً للمشركين فقال المشركون : إن لهؤلاء صلاة هم أهوى إليهم من أبنائهم وأموالهم اجمعوا أمركم ثم ميلوا عليهم ميلاً واحدة . فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين » وقد صلى الرسول صلاة الخوف بغزوة ذات الرقاع فكان إذا نودي للصلاة صلى بطائفة ركعتين ثم بالطائفة الأخرى ركعتين أخريين ، وإذا صلى بطائفة قامت الأخرى تحميتها وتدفع عنها العدو . فكان عليه السلام يصلي أربع ركعات والقوم يصلون ركعتين .

والذي أريد أن أقوله الآن أن قوماً يصلون في ساحة القتال ، ويذكرون قول ربهم « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقول رسولهم : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً » لا تحدثهم أنفسهم بمتكر قط ، وإنما تراهم دائماً مثلاً عالياً للطهر والفضيلة والاستقامة . وهذا ما سجله التاريخ لجنود محمد عليه السلام .

فكما حرصت حكومة رسول الله على تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، لقد حرصت على تطهيره من عناصر الرذيلة والفساد . فلقد حدث ذات يوم من عام تسع أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس أحد بني سلمة « يا جد هل لك العام في جلاذ بني الأصفر (الروم) ، فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ! فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى أن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر » فأعرض عنه رسول الله ، ونزل الله قرآنًا يسجل فيه هذه الحطة ، ويحذر المؤمنين من أمثالها فقال « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ولقد امتلأت نفوس الصحابة إيمانًا بأثر الطهر والفضيلة في التعجيل بنصر الله ، فكانت ترى عمر رضي الله عنه يكتب لقائد جيشه سعد بن أبي وقاص قائلاً « أمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراصاً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم الله ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ... ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يُسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم » . وصدق عمر ! .

فهاهى ذى جيوشنا تذهب لمتخرج اليهود من فلسطين ، فيسلط الله علينا
الدول الكبرى ويخيب رجاءنا فى مجلس الأمن ، فلا ننال حقاً ، ولا نرد باطلاً .
وإنما نعود وقد طاردتنا الخيبة ، ولاحقنا الخسران . وما ذلك إلا نتيجة الفساد
الذى عم الشرق العربى فدفع به إلى الخلاعة والمجون والميوعة والاستهتار . ولو
عرفت حكومات الشرق العربى وأبناؤه حق الله فأدوه كاملاً خالصاً ، لما أصابهم
الذى أصابهم ... فلئن تأمرت الدول بنا ، وتفكرت لنا وآزرت عدونا لكان لنا
من تقوى الله والإخلاص له مخرجاً من كل ضيق ، ونجاة من كل مأزق ، والله
كفيل بأن يقذف فى قلوب أعدائنا الرعب كما قذفه فى قلوب الذين كفروا يوم بدر
أو يفرق جمعهم ويخذل بينهم كما خذل بين الأحزاب يوم الخندق .. والله جنود
السموات والأرض ... ولـكننا - واللاسف - قد عصينا الله وعصينا الرسول ،
وأقبلنا على اللهو الباطل نبتاعه وايم الله بأموالنا ، فسلط الله علينا من لا يخافه ولا
يرحمنا ، ولن نزال كذلك ما تركنا كتاب الله وسنة رسوله ، فإن عدنا تائبين
مخلصين ، وجدنا من توفيق الله ما يعيننا على أعداد العدة وتسليح الجيش ، وما
يصرف الدول الكبرى عن مؤازرة عدونا والتآمر بنا ، ثم ما يعجل بالنصر لنا ،
ولينصرن الله من ينصره ، إن الله اقوى عزيز .

فهل تذكر الحكومات والشعوب هذه النصيحة المخلصة من مواطن يفيض
قلبه بالإخلاص لوطنه الإسلامى الذى فرقه الفساد وأنهكته الرذيلة ؟ وهل تنفض
أيديها من تلكم الجاهليات التى أتتها من الغرب ، والتى بدأ الغرب نفسه يشعر
بخطرها وضررها ، ويحاول أن ينفض يده منها ؟ ألم تر إلى فرنسا كيف أطاح بها
اللهو والفساد والترف فذلت لجبروت الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، وخضعت
لسلطانهم فى أقل من دورة القمر ، ووقف زعيمها « بيتان » يعض بنان الندم فيقول

« لقد دمرت روح الانغماس في الملذات ماشيدته روح التضحية » ثم ينصح مواطنيه قائلا « أصلحوا من أخلاقكم ، ودعوا الترف والملذات ، وأقبلوا على العمل بصبر وتضحية » .

ألا ما أجمل الإسلام حين أمر بالتقوى ودعا إلى الفضيلة ونفّر العسكريين والمدنيين من الرذيلة .

وما أجمل سلوك الجنود المسلمين فيما يفتحونه من أمصار . ثم ما أقبح ما يلجأ إليه جنود أوربا اليوم من استخفاف بالأعراض ، واستهتار بالشرف ! .

القتال في أشهر الحرام

نزل في سرية عبد الله بن جحش قول الله تعالى :- « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » وظاهر الآية يحرم القتال ، إذ هكذا سياقها (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه : قل قتال فيه كبير ، لا يرضاه الله ، فلا تعودوا إليه أبداً ، لعلكم تفلحون) .

ويرى بعض الأئمة أن هذه الآية لا تحرم القتال في الشهر الحرام لأن لفظ القتال فيها نسكرة في حيز مثبت فلا تعم . وقد جاء في تفسير المنار خلاف ذلك . إذ استدل بتكثير لفظ القتال في السؤال والجواب على التنويع « كأنه قيل : أيصح أن يقع فيه أي قتال ما ؟ ... قل قتال فيه كبير ، أي أن أي قتال فيه ، وإن كان صغيراً في نفسه أمر كبير مستنكر وقوعه فيه لعظم حرمة » .

وتحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالسنة ، إذ ثبت أن الرسول عليه السلام حاصر الطائف لعشر بقين من الحرم سنة ثمان للهجرة كما ثبت أن سرية الخطب - التي قادها أبو عبيدة بن الجراح وكان فيها عمر وثلاثمائة من المهاجرين - خرجت في شهر رجب أحد الأشهر الحرم سنة ثمان أيضاً .

وأما القول بأن ناسخ تحريم القتال هو قوله تعالى :- « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » أو قوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » أو قوله « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » هذا القول بأن إحدى هذه الآيات هي التي نسخت تحريم القتال قول لا يستقيم

لأن هذه الآيات نزلت سنة تسع بينما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لحصار
الطائف وخرج أبو عبيدة رضي الله عنه في سرية الخبط سنة ثمان .
فهذه الآيات ليست ناسخة لتحريم القتال . وإنما هي مؤكدة له ، إذ سبق
فسخه بالسنة المطهرة . فهي بمثابة إقرار لما استقر الأمر عليه .

الأسرى

كان عليه السلام يفادى بعضهم بأسرى المسلمين كما في سرية عبد الله بن جحش إذ أسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله وهما أول أسيرين في الاسلام فبعثت قريش في فدائهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبا فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحباكم » ويقصد الرسول بصاحبيه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان . فقد تركا سرية عبد الله إلى بغيرهما ضل فأسرتهم قريش . ولما سمعت قريش قول الرسول أرسلت سعداً وعتبة ، فرد الرسول عليهما الحكم وعبد الله .

وكان عليه السلام يحرص على مفاداة أسرى المسلمين كل الحرص فقد فدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل وقد وقع في سهم سلمة بن الأكوع جارية حسناء عندما كان في سرية أبي بكر إلى نجد . فأخذها منه رسول الله وفدى بها أسرى المسلمين بمكة .

وكان عليه السلام يفادى بعض أسرى المشركين بالمال كما في غزوة بدر . فقد شاور أصحابه في أسرى قريش . فأشار عليه الصديق بأخذ الفدية منهم حتي ينتفع المسلمون بها ، وعسى أن يهديهم الله إلى الاسلام فيزداد الرسول بهم قوة وأشار عليه عمر بقتلهم لأنهم أعداء الله وأئمة الكفر وشيوخ الضلال واسكن الرسول صلى الله عليه وسلم رق لقول أبي بكر وفادى الأسرى بالمال فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف . أما الذين لا مال لهم فكانوا يفادون أنفسهم بالعمل كأن يعملوا أولاد الأنصار القراءة والكتابة .

وكان عليه السلام يمن على بعض الأسرى فيطلق سراحهم دون أن يفادوا أنفسهم بشيء . فقد كان من بين أسرى بدر شاعر يدعى عبد الله بن عمير خاف على نفسه الهلاك فذكر الرسول بخمس بنات له لا يعولهن غيره وأعطاه ميثاقاً ليمتنعن عن قتاله ما عاش . فرق الرسول له ومن عليه بحريته .

وكان صلى الله عليه وسلم يقتل بعض الأسرى إذا كانت في موتهم نفع للمسلمين أو في حياتهم ضرر بهم . فقد أمر بقتل اثنين من أسرى بدر هما النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط لشدة عداوتهم لله ورسوله . أما النضر فقد سأل مصعب بن عمير أن يكلم الرسول في شأنه عسى أن يعفو عنه ولا يقتله . ولكن مصعباً ذكره بما كانت يقول في كتاب الله ورسوله من سيء القول وهجر الكلام . فضرب على بن أبي طالب عنقه ، ودعا الرسول ربه أن يغفر المقداد من فضله حيث أنه أسر النضر فخلص المسلمين منه . وأما عقبة فقد قال عند ما أمر الرسول بقتله « فمن للصبيّة يا محمد ؟ ! » قال « النار ! » ولم يلبث عاصم بن ثابت أن قتله فأمن المسلمون شره ونجوا من كيده . وقد قتل المسلمون الشاعر الذي من عليه رسول الله يوم بدر ، عند ما نقض عهده فحارب الرسول في أحد ، فقد شاء الله أن يجعله أسيراً لهم .

وقد نزل بعد بدر قول الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » يعلم ما يليق بكل حال . وهكذا يعاتب الله رسوله وأصحابه إذ فادوا أسراهم بالمال ولم يقتلوهم . والإسلام يومئذ ضعيف والمسلمون قلة . بينما الشرك وأهله في قوة وكثرة ، فقتل المشركين - والحال هذه - أجدى على الإسلام من فدائهم بالمال ومن أجل هذا العتاب السماوي بكى الرسول وصاحبه أبو بكر . فلمسا رأهما عمر

يبكيان قال : « يا رسول الله أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباً كيت لبكائكما » فقال عليه السلام « أبكى على أصحابك في أخذهم الفداء . ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة وأشار عليه السلام إلى شجرة قريبة .

فلما عز الإسلام ، وقويت شوكته ، أنزل الله سبحانه قوله : « حتى إذا اتختموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية مخيراً بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما المن والفداء فظاهر الآية يمنع القتل بعد الأسر كما يذكر السيوطي في أحكام القرآن .

ومن أجل ذلك قال ابن عمر للحجاج لما دفع إليه أحد الأسرى ليقتله : — ليس بهذا أمرنا إنما قال الله تعالى « فإما مناً بعد وإما فداء » .

هل يؤمن بغير الله؟

لم يكن عليه السلام يأذن للمشرك بالقتال معه ، حتى يؤمن بالله ورسوله .
فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « خرج النبي صلى الله عليه وسلم قبل بدر . فلما كان بحجرة الوبرة (موضع على أربعة أميال من المدينة) أدركه رجل يذكر بالجرأة والنجدة ، ففرح به الأصحاب . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال تؤمن بالله ورسوله ؟ قال لا قال فارجع ، فلن أستمع بمشرك ، ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم كالمرّة الأولى ، ثم رجع فأدركنا بالبيداء فقال كالأول فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ قال نعم ، فقال له انطلق » فالرسول صلى الله عليه وسلم قد رده مرتين لشركه ، حتى إذا أسلم في الثالثة استعان به . والسرف في ذلك ما قدمت من حرص الحكومة الإسلامية الأولى على تطهير الجيش من تلك العناصر التي أن خرجت مع المسلمين ما زادتهم إلا خبلاً . فالمشرك إذا حارب في صفوف المسلمين ، لا يفيدهم كثيراً إذ أن غايته في أغلب الأحيان الكسب المادي .

والذي تحركه للمادة ليس كالذي تحركه العقيدة والفكرة والمذهب فيقاتل من أجل هدف معنوي . فالأول يحارب ويرجو النجاة كي ينعم بما ينشد من المال ، فتراه في قتاله جبانا حذراً ، لا ينصر من ضعف ولا يكثر من قلة . والثاني يحارب وهو حريص على الموت كل الحرص لأن موته لا يحول بينه وبين ما يريد من حياة الفكرة التي يفاضل من أجلها ، كما يحول موت صاحب الهدف

المادى بينه وبين ما يريد من المال والغنى . فتراه أشد الناس شجاعة وبسالة ،
ينطلق كما ينطلق السهم قوياً مهاسكاً ، يعمل في عدوه الضرب والطعن حتى
يقتل أو يفر منه الموت الذى حرص عليه فتوهب له الحياة .

ثم إن المشرك عدو لدود للإسلام ، قد تحدته نفسه بالسكيد للمسلمين حين
يكون السكيد أبلغ ما يكون أثراً ، وأكثر ما يكون مضاء . وهو عندما يدخل
في صفوف المسلمين مسلحاً ، يكون أقدر ما يكون على النيل منهم ، أو يكون نيله
منهم أنكى بهم وأعظم خطراً . فلو حارب المسلمين من خرج معهم من
المشركين وأهل النفاق لا اضطربت صفوفهم بالفوضى ، ولـكانوا لقمة سائغة
في جوف العدو . ومن أجل ذلك تعتمد الجيوش المعاصرة إلى نفر من جنودها
فتلبسهم لباس عدوها وتدفع بهم إلى صفوفه عن طريق الهابطات (الباراشوت)
أو غير ذلك من الطرق . فما تكاد تبدأ الحرب حتى ينشر هذا النفر المتفكر
ألوان الفوضى والاضطراب بين صفوف العدو الذى اطمئن إليه وظنه منه بما
يجد من لباسه .

ولهذا كانت استعانة الرسول بالمشركين قاصرة على سلاح يستعيره أو حديث
يستشف به منهم أمر عدوه ، إلى غير ذلك من وسائل العون التى لا تمكّن
المشركين من المسلمين كما يمكنهم القتال فى صفوفهم . فقد استعان عليه السلام
بسلاح صفوان بن أمية ودرعه يوم حنين وهو يومذاك على دين الشرك ، فأرسل
إليه يقول « يا أبا أمية أعزنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً . فقال صفوان
أغصباً يا محمد ! قال بل عارية وهى مضمونه حتى نؤديها إليك . فقال صفوان ليس
بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . كما أن الرسول صلى الله عليه
وسلم أرسل عينيه الخزاعى عينا له إلى قريش يوم الحديبية فجاءه بخبرها . وكان

عينه يوم بعثه رسول الله كافراً . ومن ذلك يستنتج ابن القيم « أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عينه الخزاعي العين كان كافراً إذ ذاك . وفيه من المصاحبة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذ أخبارهم » .
وأما أهل الكتاب فلا استعانة بأسلحتهم ، أو اتخاذهم عيوناً على أعداء المسلمين أولى من الاستعانة بالمشركون ، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد حفر الخندق ، استعار من اليهود آلات الحفر ، والتحالف الحربي جائز معهم إذا جمعتهم مصالح مشتركة إلا أن يكون المسلمون في غنى عن معونة غيرهم .
فلقد حالف عليه السلام اليهود أول ما قدم المدينة فقال في وثيقته « وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » ولقد قدمنا القول عن ذلك في الجزء الأول من الكتاب فقلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم « لم يكن يرى في المسلمين - أول عهدهم بالمدينة - من القوة ما يمكنهم من القيام ، وحدهم في وجه قريش ، فعقد هذه المحالفة الدفاعية بهذا النص من وثيقته كي يجد من ينصره على قريش أو غير قريش ممن يكيد له ويعاديه ، وقد ترك عليه السلام كلمة النصر عامة في هذا النص كي تشمل المعاونة المادية إلى جانب المعاونة الحربية ، وقد جاء في الوثيقة أيضاً « أن الرسول إذا دعا اليهود إلى صلح حليف المسلمين فإنهم يصلحونه ، وإن اليهود إذا دعوا المسلمين إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين » وإنما فعل الرسول ذلك توثيقاً لعرى التضامن الحربي بين المسلمين واليهود ، وتأكيذاً للوحدة التي أرادها لعناصر الأمة اليهودية ، وقد استثنى عليه السلام من هذا النص الأخير من حارب الدين ، فليس ينبغي للمسلمين أن يصلحوا من حارب دينهم ، بل ليس لليهود أن يصلحوا أعداء الإسلام ، ثم يدعوا المسلمين إلى مصالحة من صالحوا^(١) » ولقد جاء في وثيقته صلى الله عليه وسلم أيضاً « أن اليهود ينفقون مع المسلمين

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول ص ٤٩ .

ماداموا محاربين » وقد علقنا على هذا النص بقولنا « فإذا ضم الجيش معسكرين معسكراً للمسلمين وآخر لليهود ، كان على كل معسكر أن يتكفل بنفقته ، فيبتاع الأسلحة ويطعم الجند من ماله الخاص ، أما أن ينفق المسلمون على اليهود إذا هم خرجوا معهم مقاتلين ، أو يظن اليهود أن نفقتهم واجبة على المسلمين بما خرجوا معهم لقتال عدوهم ، فذلك مانقاه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا النص من وثيقته ^(١) » .

ولست أجد فيما بين يدي من مراجع نصاً صريحاً يثبت اشتراك اليهود مع المسلمين في الحرب ، أو دعوة الرسول لهم إلى العمل بما نصت عليه الوثيقة من المعاهدة الدفاعية ، فلقد تبين له صلى الله عليه وسلم من جدلهم بالباطل ومحاولتهم التفرقة بين المسلمين ما تنطوى عليه نفوسهم من حقد للإسلام ، فضمهم إلى قائمة الذين إذا خرجوا معه ما زادوه إلا خبالاً . وأكبر ظني أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو قد وجد منهم موادة وإخلاصاً لدعاهم إلى معاونته يوم بدر . ومن هذا أرى أن الإسلام يحيز محالفة أهل الكتاب وطلب العون منهم ، متى أظهروا الود والإخلاص للمسلمين ، أما إذا تنكروا ، فلا خير فيهم . وإن اليهود الذين حالفهم الرسول هم اليهود الذين نكل بهم وأجلاهم لما أصرروا على الكيد للإسلام والفساد للمسلمين .

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول ، ص ٥٠

القوة المعنوية

ولقد حرص الإسلام على انتزاع عوامل الضعف من نفوس المسلمين حتى لا تذهب ريحهم أو تضعف شوكتهم ، وعوامل الضعف قد تأتي بعد النصر غروراً واستهتاراً ، كما تأتي بعد الهزيمة يأساً وقنوطاً ، وكلا الأمرين حاربه الحكومة الرشيدة أو حاربه الإسلام الخفيف بعبارة أدق .

فلقد انتصر المسلمون في بدر وهم قلة . انتصروا على عدو يفوقهم عدداً وعدة ، ومثل هذا النصر قد يدفعهم إلى الاستهتار بعددهم والغرور بقوتهم ، وهذا ما أراد الله سبحانه أن يفتزعهم من قلوبهم ، فذكركم بالحقيقة الواقعة التي قد تغيب عن عقولهم . . ذكركم بأن هذا النصر الذي أحرزوه إنما هو من عند الله لا من عند أنفسهم ، فنزل قوله الكريم : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ! وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ! » .

ويوم حنين إذ تسلل العجب إلى نفوس المسلمين وظنوا أنهم لا يغلبون من قلة ، فكان جزاؤهم الهزيمة النكراء ، ونزل القرآن الكريم ينتزع من نفوسهم هذا الغرور والاستهتار ويعاتبهم عليه ، وذلك قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها . . . »

ولئن كان الله سبحانه قد حارب الغرور والاستهتار في نفوس عباده المحاربين ، لقد حاربت حكومة رسوله اليأس والقنوط في نفوسهم أيضاً ، إيماناً منها بأثر القوة المعنوية في تقرير مصير الحروب .

فلقد حدث أن هزم المسلمون في أحد ، فازدادت قوة العدو المعنوية حتى
لقد سارع شيخهم أبو سفيان ينادى بأعلى صوته « يوم بيوم بدر والموعود العام
المقبل ! » وأخذ المسلمين شيء من الضعف ، وكاد يدب في نفوسهم اليأس لولا
حكمة الرسول وحسن سياسته ، فلقد أبى عليه السلام أن يبقى على نار الهزيمة لحظة
واحدة ، فسارع إلى مطاردة أعدائه في الغد من يوم أحد ، حتى إذا بلغ
حراء الأسد أوقد النار ثلاثة ليال متتالية ، حتى فت في عضد قريش ، فقنعت
بالإياب وآثرت الانسحاب ، فعاد المسلمون إلى المدينة وقد غزوا قريشاً خشيت
بأسهم وانسحبت أمامهم ، وإنما هو يوم بيوم أحد ، وأنها واحدة بواحدة
والحرب سجال .

ولا شك أن هذه السياسة هي الحكمة بعينها . فلو أن الرسول عليه السلام
قنع بهزيمة المسلمين يوم أحد ، لمبطلت روحهم المعنوية إلى القاع بعد أن بلغت
القمة أو كادت يوم بدر ، ولسمت روح العدو سموأ يزيدهم قوة وبأساً ، ولكنه
صلى الله عليه وسلم رد للمسلمين كثيراً من هيبتهم بموقفه الأخير في غزوة حراء
الأسد ، فحفظ للمسلمين قوة الروح وانتزع من نفوسهم عوامل اليأس .

ومثل هذا حدث بعد انسحاب المسلمين في مؤته ، فلئن كان في هذا
الانسحاب المنظم مهارة وحذق ، لقد كان نوعاً من الهزيمة على كل حال ، ولم
يكن فيه شيء من النصر والظفر . ومن أجل ذلك أخذ المسلمون يعيبون على
خالد انسحابه قائلين « يافرار فررتم في سبيل الله ! » فما كان من رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا أن أرسل عرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين
إلى الشام . ولم يلبث أن أمده بمدد من الصحابة على رأسه أبو عبيدة الجراح ،

فكانت غزوة ذات السلاسل ، تلك الغزوة التي أعادت للمسلمين هيبتهم عند حدود الشام ، وردت لهم اعتبارهم .

وليس أدل على حرص الإسلام الحنيف على تقوية الروح المعنوية في نفوس المسلمين من هذه الآيات اليبينات التي كانت تنزل بين الحين والحين لتبث الحماسة وتثبت الأقدام ... وما ظنك بجيش من المؤمنين يسمع قول القوي العزيز : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ثم ما ظنك بجيش يسمع هذا القول الكريم « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ان القلة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة بإذن الله ...

وإن الله مع الذين آمنوا في حربهم ، يدمهم بملائكته ويرعاهم بتأييده ونصره وإنه سبحانه قد اتى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فما يطيقون حرباً ولا قتالاً !!

هذه المعانى تجعل الضعيف قوياً ، والقليل كثيراً ، والهاالك مهلكاً ، واليائس مؤملاً ... وانها لتدفع المسلمين إلى الجهاد دفعاً قوياً شديداً ، فتجعل النصر والظفر حقيقة واقعة لا خيلاً طائراً . فلا إخال جيشاً يتمثل هذه المعانى الا وكان النصر حليفه مهما بلغ من القلة والضعف . ولقد آمن المسلمون بأثر القوة المعنوية في التعجيل بالنصر ولو كان العدو أكثر منهم عدداً وعدة . فكان عبد الله بن رواحه يخطب جنده يوم موته قائلاً قالته الخالدة : - « يا قوم ! والله ان التى تسكرهون لالتى خرجتم تطالبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ! ! فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة ... »

وخير ما كان يحمس المسلمين ويرفع من روحهم المعنوية تلسم البيعات التي التي كانت تسبق القتال في بعض الغزوات . فلقد كان عليه السلام يبايع المسلمين على الا يفروا ، كما كان يبايعهم على الموت في سبيل الله في بعض الأحيان . فقد بعث في سنة الحديبية عثمان بن عفان ليفاوض قريشاً ويدعوهم إلى السلام ، ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، إذ لم يقصد الرسول حرباً وإنما جاء ليعتمر . فلما عرض عليهم ذلك سألوه أن يطوف بالبيت إن شاء ، ولكنه رفض حتى يطوف رسول الله والمسلمون معه . فأقسمت قريش لئلا يمنن محمداً عن مكة عامه هذا . وطال حبل الحديث حتى أوجس المسلمون خيفة ، وظنوا ان قريشاً إنما فعلت بعثمان شراً . وبينما هم كذلك إذ نبأ بمقتل عثمان بطرق أذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيثور ويفور ، شأنه أمام كل غدر وخيانة ، لأنه لم يفعل رسل أعداء سوء ولا شراً ، بل ردهم مكرمين كما جاؤا . فكيف يردون كرمه هذا مكرراً وخداعاً ؟ !

لقد جاءه رسولا مسيلة يشهدان ان مسيلة رسول الله . وهذا كذب واقتراء على الله يأباه الرسول ، ولكنه كظم غيظه ، واسكن غضبه ، وقال للرجلين « لولا ان الرسل لا تقتل لضربت اعناقكما » وقد كان هذا هديه في معاملة الرسل : يردهم آمنين مطمئنين ولو أغلظوا له القول فاسمعوه ما يكره . وهذا رسوله عثمان لا يسيء إلى قريش ، ولكن يقرط آذانها بأحاديث السلم فتترامى انباء قتله إلى المسلمين . ولو صدقت هذه الشائعة لكانت كالطامة الكبرى على قريش . فقد غضب المسلمون لغضب الرسول . وكادت سيوفهم تقفز من غمادها عندما قال لهم « لا نبرح حتى نناجز القوم » وعند ما جمعهم فبايعهم على الا يفروا حتى يستشهدوا . فقد بايعوه بقلوب ملؤها الإيمان ، ونفوس

تتوق إلى الموت في سبيل الله . حتي لقد كان الواحد منهم يبائعه مرتين أو ثلاثة
مرات في أول القوم وأوسطهم وآخرهم كما فعل سلمة بن الأكوع . ولما تمت
البيعة وضع الرسول إحدى يديه على الأخرى يريد أن يشرك عثمان في بيعة
الرضوان كما قد شهدها . وكادت نيران الحرب تشتعل لولا أن جاء عثمان إلى
رسول الله فعمل المسلمون أنه لم يقتل ، وفي هذه البيعة نزل قول الله تعالى : - (لقد
رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل
السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً)
فأى فوز لهم بعد إذ رضى عنهم ربهم وأرضاهم ، فاتاهم من فضله جزاء بما
أخلصوا لله ورسوله ، فتبايعوا على نصرته دينه .

ومن هذا التحمس الذي ملأ القوم نستطيع أن نلحس أثر الرسول وبيعاته في
نفوس الجنود وروحهم المعنوية .

القوة المسادية

ان من مزايا القرآن الكريم هذا الشمول الذي يحده القارىء في آياته ، وهذا الخلود الذي يلمسه بين كلماته . فهو يأتي بالكلمة الواحدة تحسبها أول الأمر كغيرها من الكلمات ، فإذا تقابعت العصور ، وتطور الناس من حال إلى حال ، وجدها أوسع من هذه العصور ومن تلكم التطورات .

أنظر يا أخى إلى كلمة القوة في قوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أنظر كيف شملت ما عرفه الصحابة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيف ورمح ودرع ، وأنظر كيف شملت ما نعرفه اليوم من طائرة ودبابة وقنبلة ذرية ، لتعلم ان القرآن خالد لا يقف عند عصر ، وإنما يشمل العصور كلها ويسع التطورات جميعاً .

وأنظر إلى كلمة « الرمي » في قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرمي » أنظر كيف يشمل الرمي بالسهم والنبال بالأمس ، وكيف يشمل الرمي بالقنابل اليوم ، تقذف بها الطائرة أو الدبابة أو الغواصة .

لقد لاءم الإسلام فكرة التطور كل الملائمة . فكنت تسمع أبا بكر رضى الله عنه يقول لخالد بن الوليد « إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به : السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف » فإذا كان الناس يقاتلون في هذا العصر بالدبابة والطيارة ، فليس لنا أن نقاتلهم بالبنديقية والسيارة . وإذا كانوا يزدون بين الحين والحين من حجم الدبابة أو من سرعة الطيارة أو من قوة فتكهما ، فليس لنا أن نقاتلهم بطراز قديم أقل حجماً أو سرعة أو فتكاً . وإذا كانوا يعرفون القنبلة الذرية فليس لنا أن نعتد عن معرفة أسرارها ، بل علينا

أن نيسر للعلماء سبل البحث والإنتاج حتى نعرف ما يعرفون ونبتكر ما لا يعرفون .
فلقد كان عليه السلام حريصاً على اتباع الوسائل الحربية التي يجملها اعداؤه .
فما كاد سلمان الفارسي يعرض عليه فكرة الخندق يوم الأحزاب حتى سارع إلى
تنفيذها ، فكان يحفر بيده السكريمة مع أصحابه . والخندق إذ ذاك وسيلة
مبتكرة . . . انها مكيدة ما كانت العرب تسكدها كما قال أبو سفيان « وفي
ذلك أعظم دلالة على أن الممالك والدول التي لا تنسج على منوال مجاورها فيما
يتخذونه من الآلات الحربية ، والتراتيب العسكرية ، توشك أن تكون غنيمة
لهم ولو بعد حين » ^(١) فالثابت أن فكرة الخندق خديعة فارسية نقلها سلمان
إلى المسلمين .

وانظر يا أخى إلى الدعامة الأولى من دعائم البناء الحربى . . . أليست هى
الحديد الذى قال فيه تعالى (وأنزّلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ؟ إن
الحديد الذى كانت تصنع منه الرماح بالأمس هو الحديد الذى تصنع منه اليوم
الدبابة والطيارة ، فما أجمل الخلود فى كلمات القرآن . . . وما أجمل الخلود
فى معانيه ؟ .

ان فى الأمر باعداد العدة لحكمة بالغة ، فإن من الناس من يظن أن
الإيمان بالله دون اعداد العدة كفيل بالنصر ، وهذه هى الشعوذة التي لا يريدنا .
فاعداد العدة هو الأخذ بأسباب النصر ، والأخذ بالأسباب من تمام التوكل .
وهل يقعد هؤلاء عن طلب الرزق فى الدنيا ، وينظرون اتطرهم السماء ذهباً
وفضة ، أم تمطرهم سخطاً من الله ؟ ! .

(١) الترتيب الادارية ، ج ١ ، ٣٧٧

لقد حرصت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم على إعداد العدة كل الحرص ، فكان عليه السلام يرسل البعثات العلمية لتعلم الصناعات الحربية . فقد جاء في طبقات ابن سعد ان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف ، إذ كانا يجرشان يعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . ولقد كان المنجنيق والدبابة أحدث وسائل القتال أيام رسول الله وأكثرها ندرة ومن أجل ذلك كان استعمالها يحتاج إلى مران حربي وحذق فني لا يأتي بغير ارسال البعثات العلمية .

وليس أدل على نضج فكرة التسليح واعداد القوى الحربية من انهيار الدول الضعيفة أمام جحافل الالمان في الحرب العالمية الثانية . فلو أن هذه الدول قد أعدت مثل ما أعد الالمان من قوى ، لما سمعنا عن انهيار فرنسا أو تسليم الجيش البلجيكي أو الهولندي مثلاً ، ولما سمعنا قول بيتان : - « اننا في قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ؛ ولذلك انهزمنا » .

وليس أدل على نضج هذه الفكرة أيضاً من هزيمة الألمان في روسيا . فلو أن الروس استشعروا برد الراحة ، فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد كما فعل الفرنسيون ، لخضعت بلادهم للالمان كما خضعت فرنسا ، ولسكنهم لم يغفلوا عن أسلحتهم وعدتهم ، فمضوا في سياسة التسليح ما وسعهم المضي ، حتى إذا هاجمهم الألمان لم نسمع عن انهيار مفاجيء أو استسلام ذليل ، بل سمعنا كيف ثارت « سباليينجراد » فطردت الالمان شر طردة ، وكيف توالى جهود الروس بعد ذلك حتى حفظوا لبلادهم حريتها وكرامتها .

وخير ما نرويه في هذا المقام ما كتبه المجلة الأوربية « بارى سوار » عن تسليح سويسرا قبل الحرب العالمية الثانية : - « لقد نشطت سويسرا في تنظيم جيشها وحشد قواها وتعزيز جبهتها وزيادة مدة التدريب العسكري بين أبنائها منذ سنة

١٩٣٦ ، وإذا كانت لم تفكر فيما مضى في إقامة المصانع الحربية ، فقد أصبح لديها الآن مئات من المصانع الحربية الكبيرة المعدة لهذا الغرض في أنحاء مختلفة . وقد أقيمت استحكامات عظيمة على طول خط الرين وبالقرب من الجهة الألمانية وتعد سويسرا الآن برنامجاً حربياً حافلاً لحمايتها من الطواريء المفاجئة ، ولكي تصل إلى هذه الغاية قررت سحب ٢٥ مليوناً أخرى من المال الاحتياطي للاستمرار في عمليات التحصين والتسلح » ثم تعقب المجلة على هذا بقولها « فسويسرا لن تفقد استقلالها ، ولن تموت أبداً . وإذا كان الشعب السويسري لم يكن في تاريخه من الشعوب المتعطشة للحروب فليس هو كذلك بالشعب الذي يغتر بالسلم ! »

وهذه المجلة الأخيرة هي التي تهمن ، فما كانت سويسرا أو غير سويسرا من دول أوربا المسيحية لتصل إلى فهم حقيقة السلام والعمل لها كما فهمها الإسلام . ولقد قدمنا القول عن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم وبيننا أنها كانت رداً للعدوان أو دفاعاً عن حرية العقيدة وتأميناً للدعوة إلى الله ، فإذا قيل كيف يدعو الإسلام إلى السلام ويأمر بالتسلح وإعداد العدة ، قلنا مثل ماقاتله المجلة الأوروبية عن سويسرا « إن الإسلام وإن كان دين السلام ، فإنه لا يأمن أعداءه في فترة السلام » .

أن نزع السلاح أو تخفيضه فكرة جالت بخاطر طلاب السلام في هذا العصر ولقد دفعهم إيمانهم بنضج هذه الفكرة إلى أن يضمونها ميثاق هيئة الأمم ، فنصت المادة الثامنة على « أن صوت السلام يقضى بتخفيض تساح الدول إلى أدنى درجة تتفق مع سلامة الوطن والتمسك من الاشتراك في تنفيذ الالتزامات الدولية ، وأن على المجلس أن يضع خطط هذا التخفيض بعد مراعاة الموقع الجغرافي والظروف الخاصة بكل دولة ، ثم يرسل هذه الخطط إلى الحكومات

المتنقلة لفحصها وتنفيذها ، على أن تخضع هذه للتطور الطبيعى ، فتعدل مرة كل عشر سنوات . وعلى الدول الاعضاء فى عصبة الأمم أن تتبادل كافة المعلومات الصريحة عن نظام تسليحها وبرامج قواتها البرية والبحرية والجوية ، وعن حالة الصناعات التى تفيد الأغراض الحربية » ثم نصت المادة التاسعة على تأسيس لجنة دائمة ترشد المجلس عن كافة المسائل الحربية والتى تتعلق منها بتنفيذ المادتين الأولى والثامنة خاصة . ولا شك أن هناك عيوباً كثيرة لنظرية نزع السلاح أو تخفيضه .

فهما حاولت العصبة فإنها لن تستطيع أن تضع يدها على التسليح المستتر فقد تستطيع الدولة أن تخفى بعض أنظمتها الحربية تحت ستار الألعاب الرياضية ، أو تخفى ميزانيتها الحربية بوضعها فى غير موضعها . ثم إن كثيراً من الدول ترفض مراقبة اللجنة التى أشارت إليها المادة التاسعة من ميثاق عصبة الأمم وتعد عملها هذا تدخلاً فى شئونها الداخلية كما يقول السكونت شالويا رئيس مندوبى الوفد الإيطالى لدى عصبة الأمم ثم أن تخفيض التسليح إلى حد يتفق مع سلامة الوطن كما ينص الميثاق ، فيه تعارض ظاهر كما يقول فوشيل ، إذ أن سلامة الوطن تقتضى تجنيد جميع أبنائه والمضى فى سياسة التسليح الحربى إلى أبعد حد . فضلاً عن أن اتخاذ الظروف الخاصة بكل دولة أساساً لتحديد ما يلزمها من السلاح أمر لا يسهل تحقيقه من الناحية العملية ، فكثيراً ما تبدو الدولة أخطار لا تتوقعها . ثم إن الدول التى غلبت على أمرها وجردت من أسلحتها فى معاهدة فرساي ، لن يهدأ لها بال حتى تنزع الدول أسلحتها مثل ما نزعنا ، أو تجاريهم فى التسليح الحربى . وفى ذلك يقول الجنرال ولهم جرور وزير الدفاع الألمانى الذى عاصر العصبة : — « أن لألمانيا عين الحق الذى لغيرها من الدول سواء أكان باعتبار تأمين حدودها أو مطابقتها بنزع السلاح . وفى سنة ١٩١٩ أكدت لها الدول أنها ستقتدى بها

قريباً في نزع سلاحها . ولا يخفى أن ألمانيا عضو في عصبة الأمم . والمادة الثامنة من ميثاق العصبة تنص على الوعد بتأمين حدود جميع الدول التي هي عضو في العصبة . ولذلك سيكون غرض ألمانيا في مؤتمر نزع السلاح القادم ، الحصول على الضمانات بجعل الدول الأخرى تنزع سلاحها كما أرغمت ألمانيا على ذلك . فلا يباح لتلك الدول ما هو محرم على ألمانيا »

ومن أجل هذه العيوب الكثيرة أخفق طلاب السلام في تحقيق غايتهم أو قل أخفقت الفكرة في الوصول بهم إلى بغيتهم .

أن فكرة نزع السلاح أو تخفيضه لا تؤدي إلى السلام أبداً ، فالذي يحارب بدبايتين ، يستطيع أن يحارب بدبابة واحدة . والذي لا يملك سلاحاً ، يستطيع أن يحارب بيده . وإنما الذي يؤدي إلى السلام هو إشاعة فكرة الحب والود والأخاء بين بني الإنسان ، وهذه هي المبادئ التي جاء بها الإسلام الخفيف . فهو لا يكن لطاقفة من الناس بغضاً أو عداً إلا إذا عادته واثمرت به إنه يدعو إلى التعارف بين الأمم والشعوب ، فينادي في الناس بفداء الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وهل يقوم الحب والود والأخاء بغير التعارف ، وهو أساس الحب والود ودعامة الأخاء ؟

إن الإسلام يدعو إلى السلام بين الناس ، فما يكاد أعداؤه يسألونه الصلح حتى يجد بين دستوره الحكيم هذه الآية الكريمة « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أن الإسلام لا يفكر في الاعتداء على مسلم أبداً ، وكيف يفكر والله يقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

أقسم لو أن هذه المبادئ سادت بين أمم العالم أجمع لما سمعنا عن حروب مروعة أو غير مروعة ، ولعاش العالم في سلام ووثام .

فتحقيق فكرة السلام لا يكون بنزع السلاح أو تخفيضه ، وإنما يكون بإشاعة فكرته بين الناس ، ومن أجل ذلك قال المستر ستودا مندوب اليابان لدى عصبة الأمم « إن مسأله نزع السلاح معقدة جداً وليس من السهل حلها ولا يجوز مطالبة أية دولة بنزع سلاحها ما لم تضمن سلامتها . وخير ضمان هو تربية الجنس البشرى على صفات ومبادئ ليست فيه الآن » .

ولقد ظهرت في أفق السياسة العالمية جماعة من المصلحين آمنوا بأثر التربية في إشاعة السلام العام . فتعرض بعضهم لهذه الفكرة في مؤتمر المعهد الدولي ومؤتمر التربية العالمي اللذين انعقدا في جنيف بسويسرا سنة ١٩٢٩ . ونادوا بأن تمحو الدول من كتب الطلاب ما يرمي إلى التفرقة بين الأمم ، أو يخالف مبادئ الصفاء والوثام وحب الإنسانية . كما قامت جماعة اكسفورد في أمريكا داعية إلى ما سمته « التسليح الأدبي » فاخذت تدعو إلى « الطهارة المطلقة ، والأمانة المطلقة ، والغيرة المطابقة ، والحب المطلق » .

« ومهما يكن من شيء فإن دعاء السلام — كما يقول الدكتور بقطر — قد جلبوا على العالم الكارثة التي تراها تمثل على المسرح العالمي اليوم . فحركات السلام هذه ظلت تبث في النفوس الاطمئنان في البلدان الديمقراطية في الوقت الذي كانت فيه الدول الدكتاتورية تضرم نار الروح الحربية في نفوس ابنائها » اه ومن هنا يبدو لنا نضج نظرية السلام في الإسلام ، فهي تقوم على دعامتين

اثنتين : —

(أولهما) إشاعة المبادئ الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام .

(ثانيهما) اعداد القوة الحربية .

وإنَّ السر في نضج النظرية الإسلامية يرجع إلى الجمع بين الدعامتين حتى تتحقق الدعامة الأولى . فليس من الحكمة أن نكف عن اعداد العدة متى بدأنا في الدعوة إلى مبادئ السلام فندعوا إلى تزع السلاح أو تخفيضه قبل أن ننزع من قلوب الناس الاحقاد .

وليس بنزع السلاح بأس متى شاع بين الناس حب السلام على أن يكون هناك جيش دولي يحفظ السلام ويؤدب الخارجين عليه ، فلست أشك في أن التسلح يتقل الدول بنفقات باهظة لو انفقها في اطعام الفقير وشفاء المريض وكساء العارى وتعليم الجاهل ، واصلاح المجتمع في شتى نواحيه ، لكان خيراً لها .

وليس لنا أن ننفل الحديث عن أسلحة المسلمين في عهد النبوة وقد تحدثنا عن القوة المادية . فلقد كان القوم يتخذون للحرب عدتها ، فيحتمون بالدرع ويطترسون بالترس ، ويلبسون الخوذة ، ويضربون بالسيف ، ويرمون بالقوس ويحملون الحربة والرمح ، ويركبون الفرس والبعير ، وكانت لهم اسلحة أخرى قد لا يصدق القارىء أنهم عرفوها منذ مئات السنين ، فسبقوا المخترعين المحدثين إليها . فقد كانوا يعرفون الضبور - وهو صندوق من خشب غطاؤه الجلد - يكتنون في جوفه فلا تصل إليهم حراب العدو ، ولا تعوق مسيرهم فيقدمون عليه بقذف النبال ورمى الأفواس ، وهم في حمى من أذاه وأمن من قذائفه ، وكان لهم سلاح آخر أشبه بالضبور ، يحتمون بداخله فينقبون الجدران ويقتحمون الحصون ويهزمون الأعداء .

وهذه الأسلحة هي صورة مصغرة لما نعرفه اليوم بالدبابة ، يحتوى الجند بحديدها ، ويطلقون نيرانها ، فيدكون الحصون ، وينسفون الدور ، ويقتلون العدو

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم المنجنيق يوم الطائف ، فقاتل به أهلها لأول مرة ، وإن أردنا وصفاً دقيقاً لحرب استعمل فيها المنجنيق إلى جانب الدبابه فلنقرأ ما جاء في السيرة لابن هشام عن معركة الطائف بين رسول الله وثقيف : « وراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابه ، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد ممحاة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعناب ثقيف » وإذا كان المنجنيق فيما نقل صاحب التراتيب الإدارية عن الخفاجي « آتة لرمي العدو بحجارة كبيرة بأن يشد سوار مرتفعة جداً من الخشب يوضع عليها ما يرامد رميه ثم تضرب سارية توصله إلى مكان بعيد جداً ^(١) » كانت هي الصورة المصغرة للدفاع الضخم التي يستعملها الجند في هذه الأيام عند ما يريدون اقتحام مدينة محصنة .

التدريب العسكري

وكانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت المسلمين على التدريب والمران الحربي ، فلقد خرج عليه السلام يوماً على نفر من أسلم ، فقال ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وإنا مع بني فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال : ما لكم لا ترمون ؟ ! فقالوا كيف نرمي وأنت معهم ، فقال : ارموا وإنا معكم كلكم « ولقد قال عليه السلام « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه الختسب في عمله الخير ، والرامي له ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة ، تأديب الرجل فرسه ، ومداعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهم من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ماعله فإنما هي نعمة كفرها » .

وإلى هذه السياسة الحكيمة تمنح الحكومات في هذه الأيام ، إذ لا يقوم جيش قوم بغير المران الحربي ، وعلى قدر مران الجند يكون بلاؤهم في الحرب ، والقلة التي أجادت التدريب تغلب الكثرة التي يعوزها المران ، ومن أجل ذلك جعل عليه السلام الرمي بالقوس والنبيل وغير ذلك من أداة القتال حقاً ، وجعل مادونها من اللهو باطلاً إلا ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، وتأديب الفرس يقابله اليوم المران بالطائرة والدبابة والغواصة والسيارة المصفحة ؛ فهي التي تقوم اليوم مقام الفرس في الزمن الماضي . وإن هذا المران الحربي قد عده الرسول الكريم نعمة من عند الله ، إذ به تقوى الأمم بقوة جيوشها ، وإن تركه بعد معرفته كفر بهذه النعمة ، فلم يكن عليه السلام يريد أن يرى مؤمناً ينسى فنون القتال أو يترك المران عليها يوماً ، كي يبقى طيلة حياته أهلاً للجهاد في سبيل الله ،

فلا يفقده الدين عند الحاجة ، وإنما يحده دائماً متى أرادته أشد ما يكون حذقاً
وأعظم ما يكون مراعاةً .

والرسول عليه السلام إذ يرمى مع ذلك النفر من أسلم وهو رئيس الحكومة
وسيد الأمة ، بل وهو النبي الذي اصطفاه الله ليمبلغ رسالته ، إنما يحث المسلمين
على المran الحربي كل الحث ، ويكرّم هذا العمل كل التكريم ، كي يقبل عليه
المسلمون إقبال من يريد الشرف ويتشغى به العزة والكرامة .

التجسيد الجباري

أوجبت حكومة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين أن ينفروا للجهاد إذا استنفرهم الإمام ، ولم تعف من القتال إلا من يعجز عنه ، فلقد روى أن الله سبحانه لما نزل قوله الكريم « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون . . » جاء ابن أم مكتوم الأعشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت فأنزل الله على رسوله قوله « غير أولى الضرر » ومن أجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى غزواته « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم يقصد الذين يتمنون الجهاد من أولى الضرر كابن أم مكتوم مثلاً ، أما الذين لا يحدثون أنفسهم منهم ، فأولئك لا يؤتون ثواب الذين حبسهم العذر ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

ولقد عدَّ الله سبحانه الذين يعفون من الجهاد في كتابه الكريم فقال : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا الله ورسوله » والذين لا يجدون ما ينفقون هم الذين لا يجدون ما يعينهم على القتال في سبيل الله من دابة يركبونها أو سلاح يجاهدون به العدو ، ولقد حدث في غزوة تبوك أن قدم نفر من هؤلاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يجعلهم معه ، فاعتذر إذ لا يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وقد أخذهم البكاء ، وفاضت أعينهم بالدمع إذ لم يشرفوا بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل هؤلاء كمثل ابن أم مكتوم الأعشى وغيره من أولى الضرر . فكل الفريقين يؤد من كل قلبه لو يسرت له سبل الجهاد في سبيل الله ، ولكن

ضعفًا في الجسم أو ضيقًا في ذات اليد يحول بينه وبين ما يريد ، فتأبى الشريعة الغراء إلا أن تقف منهم موقفًا رحيمًا كريمًا ، فتعفيهم من القتال إلا أن يغنيهم الله من فضله مالا ، أو صحة وقوة ، ثم تكتب لهم ثواب المجاهدين وفضلهم ، فيقول الرسول الكريم « إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر » وصدق رسول الله . . . فما يسلك المجاهدون شعبًا ولا واديًا إلا ويتمنى الذين حبسهم العذر أن يجدوا فائضًا من مال ، أو بسطة في جسم ، أو شفاء من مرض ، حتى يلحقوا بإخوانهم أشد ما يكونون فرحًا وسرورًا ، وأكثر ما يكونون بطولة واستبسالًا . . . إنهم إذن مع المجاهدين بأرواحهم وقلوبهم ، ولو قدروا لكانوا معهم بالجسم والروح معًا ، فلا أقل من أن يجزيهم الله جزاء المجاهدين ، وينجيهم من عذاب القاعدين .

وثمة فريق آخر من الناس أباحت لهم حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم التخلف عن الجهاد . وهؤلاء هم الأبناء الذين لا يجد آباؤهم غيرهم يبرم ويراعم ويحسن إليهم في ضعفهم وشيخوختهم . فلقد جاء رجل من اليمن ليجاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي : هل لك أحد باليمن ؟ قال أبواى فقال : أذنًا لك ؟ قال لا . قال ارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنًا لك فجاهد وإلا فبرهما وروى أن رجلا جاء إليه صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال عليه السلام : ألك والدان ؟ قال الرجل : نعم . قال : فقيهما فجاهد « أى أحسن إليهما وبرهما فذلك باب من أبواب الجهاد لا يقل شأنًا عن جهاد الأعداء في ميدان القتال . ولست أشك في أن هذين الرجلين كانا وحيدى أبيهما ، فإنما أمرهما الرسول صلى الله عليه وسلم باستئذان الوالدين خشية ألا يجد والدان من يرعاهما . ومعنى ذلك أن ليس لوالدى الرجلين غيرهما ، وإلا لوجدا من يبرهما ، ولما أعفى الرسول الرجلين من جهاد الأعداء .

والذى يقرأ آية المعافاة من الجندية التى سجلناها آنفا ، يعلم أن فكرة التجنيد الإجبارى فكرة إسلامية خالصة . فالإسلام لا يعنى من المذكور أحداً غير ما قدمنا . ومن أجل ذلك يقول الشيخ محمود شلتوت « ولم ير القرآن أن منها - يقصد المعافاة من الجندية - حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ولا حفظ القرآن الكريم ولا دفع بدل نقدى ولا البنوة لحاكم كبير أو صغر مما عهدناه فى عصور الضعف والاحلال ، بل كان العمل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم والعصور التالية له على عكس هذا وما كان التفكير فى جمع القرآن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القرآء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة . وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستمر القتل فيهم » ١ هـ . ولقد كان عليه السلام يعدد التخلف عن الجهاد أو التولى يوم الزحف بغير عذر كبيرة من الكبائر المهلكة . فلقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اجتنبوا السبع الموبقات ، فالوا يارسول الله وما هى ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » فانظر أى كبيرة يكون التولى يوم الزحف وقد قرنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق !؟ وكيف لا يقرن بهاتين الكبيرتين وإن فيه للهزيمة المحققة والخسران المبين . فما من جيش يتولى عنه جنوده إلا ويضع ما يدافع عنه من دين أو وطن ، دون أن يريق عدوه قطرة من دم أو يبذل شيئاً من جهد . ومن أجل ذلك حض القرآن الكريم على الثبات عند اللقاء ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » كما حرم الفرار عند الزحف فقال : « يا أيها الذين آمنوا

إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ، فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »
ولقد حدث أن تخلفت طائفة من المسلمين عن القتال يوم نبوك ، فلما انتهى
اليوم جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون فقبل منهم علانيتهم
وباعبهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً . وجاءه
كعب بن مالك حتى جلس بين يديه وكان ممن تخلف ، فقال له ما خلفك ؟ !
ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال « بلى والله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا
لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولا كفى والله لقد علمت
إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به على ليوشكن الله أن يسخطك على
ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إني لا أرجو فيه عفو الله عني . والله
ما كان لي من عذر . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله
فيك » وفعل مثل فعله كعب رجلان آخران هما مرارة بن الربيع العامري وهلال
ابن أمية الواقفي : تخلفا عن القتال وجاءا إلى رسول الله صديقين تائبين ، فقالا له
مثل الذي قال كعب ، وقال لهما مثل الذي قاله لكعب . وهؤلاء الثلاثة قاطعهم
رسول الله والمؤمنون ، وأمرهم عليه السلام ألا يقرؤا أزواجهم حتى يقضى الله
فيهم أمره . فظلوا كذلك خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ، ولا يكلمون أحداً ،
ولا يقرؤن أزواجهم ، حتى تاب الله عليهم فنزل قوله الكريم « لقد تاب الله
على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد
يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة
الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم
وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب

الرحيم » وإذ ذاك استنار وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لكانه البدر ليلة تمامه ، وكانوا يجدون ذلك منه إذا سره أمر ، فقال كعب « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال عليه السلام : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقال فإني أمسك سهمي الذي بخير .

وروى عن ابن عباس أن سبعة ممن تخلفوا عن المسلمين في تبوك أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد اعترافاً منهم بالذنوب ، وإقراراً بالخطيئة ، وتكفيراً وتوبة ، فر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأهم قال من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ؟ قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وأوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم ويعذرهم . فقال عليه السلام وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم . رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ! ! فأزل الله عز وجل قوله « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إنه هو التواب الرحيم » فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم فجاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله ، هذه أموالنا فنصدق بها عنا واستغفر لنا ، فأخذها عليه السلام لما أمره الله فقال « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

ومن هذا الذي قدمنا يتبين لنا أن التخلف عن الزحف كبيرة مهلكة ، كانت تغضب الرسول أشد الغضب حتى لقد قاطع أصحابها وحرم عليهم أزواجهم ، وقاطعهم المؤمنون فأشعروهم بالذلة والهوان ، حتى لقد قعد مرارة وهلال في بيتيهما بيكيان ، أما كعب فكان يطوف الأسواق فلا يكلمه أحد ، ويحيى ابن عمه وأقرب الناس إليه فلا يرد تحيته ، ويأتي رسول الله في المسجد فيسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، ثم يسأل نفسه أحرك رسول الله صلى الله

عليه وسلم شفّيته ليرد عليه السلام أم لا ؟ ثم يصلى قريباً منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل على صلاته أقبل إليه الرسول ، وإذا التفت نحوه أعرض عنه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يطلق الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، وقال غاضباً « رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين !! » والذى استنبطه مما قدمت أن المتخلف عن الغزو ممن لا عذر لهم ، يعاقب بالغرامة والحبس ، إذا صدق أولى الأمر وعلموا فيه خيراً .

فأما الغرامة فصداقة تطهرهم وتركهم وتكفر عن سيئاتهم ، وتنفض عنهم عار الفرار من سبيل الله . وهى عقوبة واجبة وجوب الفرائض فيما أرى ، إذا جاء الأمر بها صريحاً واضحاً « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتركهم بها » .

وأما الحبس فأصله من سنة رسول الله التقرير ، إذ أقر الذين أوثقوا أنفسهم بالسوارى على ما فعلوا ، مما يؤكد جواز حبس المتخلف إذا رأى الإمام ذلك . فالسارية كانت وسيلة للحبس فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن السجن بمعناه العصرى معروفاً يوم ذاك ، حتى أن رجلاً من بنى حنيفة أريد حبسه ، وكانت خيول المسلمين التى بعثها الرسول إلى نجد قد جاءت به ، فربط إلى سارية من سوارى المسجد .

وأكبر ظنى أن الله سبحانه لو قد أراد ألا يشرع للناس حبس المتخلفين عن القتال بغير عذر ، لعجل من نزول آيات العفو والتوبة قبل أن يوثق هؤلاء السبعة أنفسهم ، أو لأوحى إلى رسوله فأطلقهم من أول الأمر .

ثم إن هجر الرسول والمؤمنين لكعب ومرارة وهلال ، والحيلولة بينهم وبين أزواجهم ، إنما هو الحبس بعينه فيما أرى . هو الحبس كما كان يعرف الناس أيام رسول الله ، وقبل أن يعرفوا السجون التى تجمع المذنبين فى صعيد واحد ، فتحول بينهم وبين الناس .

فهجر المذنب أو حبسه شيئان متقاربان إن لم يكونا شيئاً واحداً .
فالذى يحبس لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .
والذى يهجر لا يكلم الناس ولا يكلمه الناس ولا يقرب زوجه .
والذى يهجر تضيق عليه الأرض بما رحبت حتى لسكانه في السجن تماماً
حتى لقد قال كعب يصف حاله وحال صاحبيه لما هجرهم المسلمون : « فاجتنبنا
الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتي أعرف !! »
ثم إن هذا الهجر هو الذى دفع مرارة وهلالاً إلى بيتهما ، أى أن السجن
المعفوى هو الذى دفعهم إلى السجن الحقيقي . والقصد من هذا الهجر أو الحبس
هو التأديب والتهديب ، الذى أراده الله لعباده المخلصين ، الذين إذا فعلوا فاحشة
أو أظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، واعترفوا بخطاياهم ، وأقبلوا على
الله تائبين منيبين .
فأما الذين لم يعترفوا بذنوبهم ، فجأوا الرسول يعتذرون بالكذب والباطل ،
فهؤلاء هم المنافقون الذين لم يلقوا هجراً ولا عتاباً ، ولو علم الله فيها خيراً لعجل لهم
العتاب في الدنيا كما عجل للثلاثة الذين صدقوا ولكنهم أهل النفاق والخيانة
« لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ، ولأضعو خلاصكم يبعثونكم الفتنة وفيكم
سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ،
حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » فحكومتهم الرسول صلى الله عليه وسلم
لم تكن تريد أن يضم جيشها أهل النفاق والخيانة والفتنة والخذلان ، بل كانت
تحرص كل الحرص على أن تطهره منهم تطهيراً . ومن أجل ذلك كان يقال
للرسول صلى الله عليه وسلم : إن فلانا قد تخلف ، فيقول « دعوه فإن يك فيه خير
فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ...

النساء والحرب

ينبغي للباحث في هذا الموضوع أن يفرق بين عصرين اثنين : العصر الذي سبق فرض الحجاب ، والعصر الذي تلاه ، إذ كانت فرض الحجاب في السنة الخامسة بداية لتطور شامل في شتى نواحي المجتمع الإسلامي . وينبغي له أيضاً ألا يتخذ ظاهر الأحاديث الشريفة حجة فيما يصدر من حكم أو ينادى به من رأى . فإن فهم الظروف التي أحاطت بكل حديث ، كفهم الحوادث التي نزلت من أجلها الآيات ، يعين على البحث والدرس ، ويغير كثيراً من المعنى الظاهري . ومتى حكمنا حكماً يخضع للمبادئ العامة والقواعد الكلية التي جاء بها الإسلام فإننا لا نخطئ ، ولو كان هذا الحكم متعارضاً مع القواعد الفرعية والأحكام الجزئية التي تسكيها ظروف البيئة ، وطبيعة العصر ، فإن ذلك هو الاجتهاد الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل للمخطيء فيه أجراً ، وللمصيب أجرين .

* * *

كان النساء يخرجن للقتال في العصر الأول ، وكان عليه السلام يُقرهن ولا يفكر عليهن . فلقد حدث ابن هشام أن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قالت :- خرجت أول النهار - تقصد يوم أحد - وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء وفيه ماء فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى « فقالت لها امرأة كانت تستمع لها وتنظر إلى جرح من جراحها أجوف له غور » من أصابك بهذا يا خالة ؟ » قالت « ابن قنّة - أقماء الله - لما ولى الناس عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا . فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضر بني هذه الضربة والمكن ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » ولقد روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة ، وإنهما المشموتان أرى خدما سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنها ، ثم تجميثان فتفرغانها في أفواه القوم » .

ولما جرح الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم أحد ، أخذت فاطمة رضى الله عنها قطعة من الحصير ووضعتها على جرحه ، فاسقمسك الدم بعد أن كان الماء لا يزيد إلا كثرة .

وكان لامرأة يقال لها ربيعة خيمة يوم الخندق ، فلما جرح سعد بن معاذ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوه في خيمة ربيعة » . وهذه الحوادث كلها كانت في العصر الأول كاقلت . فنحن إزاء نوعين من جهاد المرأة نذكرهما وننظر أثر الحجاب فيهما أو مقدار التطور الذى أصابهما في العصر الثانى :-

(أولاً) القتال في صفوف الرجال ، كما فعلت نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد ، عندما اعترضت طريق ابن قنينة بين جمع ممن ثبت مع رسول الله من الرجال . وهذا النوع من أنواع الجهاد لم نر له أثراً في العصر الثانى ، لأن طبيعة الإسلام في ذلك العصر تنسكرا اختلاط الجنسين ، ولو كان هذا الاختلاط في بيت الله ، حيث تتجه القلوب إلى الله وتنسى مفاتن الدنيا ، فتقبل على الطاعة والعبادة خاشعة

خاضعة . ومن أجل ذلك لم يأذن عليه السلام باختلاط الجنسين في حلقات العلم التي كان يعقدها في المسجد بين الحين والحين ، بل كان يجعل للنساء يوماً لا يتخالطن فيه رجل ، ولهذا يفتي الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، بأن المرأة إذا وقفت في صفوف الرجال تصلي ، بطلت صلاة من على يمينها ومن على شمالها ، ومن هو في خلفها . والذي أؤكد أنه الآن أن المرأة إذا خرجت إلى الميدان بنية القتال كان اختلاطها بالرجال أمراً مؤكداً ... إن لم يكن بالجيش المسلم ، فبمن تقاوت من جيش العدو . ومن أجل ذلك كان النساء إذا استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد سارعن يؤكدن أنهن لا يبعين قتلاً ، وإنما تمرضاً وسقاية ...

فالإسلام لا يأذن للمرأة في القتال ، إلا إذا هاجمها العدو في دارها أو حصنها كما فعلت صفية بنت عبد المطلب يوم حارب الرسول بنى قريظة ، فلقد تحصنت يومذاك مع حسان بن ثابت ، وجمع من النساء والصبيان . ولم يكن هناك من يدفع عنهم العدو إذا هاجمهم لأن المسلمين كانوا يحاربون ولا يستطيعون الرجوع إلى أهل الحصن إذا دهمهم أحد ، وبينما هم كذلك ، إذا يهودي يطوف حول الحصن فتظن صفية به شراً ، وتقوم إلى حسان تدعوه إلى قتله ، ولكن حسان يتردد بعض الشيء ، فتأخذ هي عموداً ، وتنزل من الحصن ، وتضرب اليهودي بالعمود فيقتله ... وهذا الجهاد لا ينهي عنه الإسلام ، بل يأمر المرأة به ما لم تجد رجلاً يدفع عنها العدو ، وخير لها أن تموت في قتال العدو من أن تستسلم له . وليس في هذا الجهاد خروج على طبيعة الإسلام في فرض الحجاب والفرقة بين الجنسين ، إذ أن المرأة أن تخرج إلى الميدان ، وإنما تقاوت عند دارها أو حصنها .

(ثانياً) تمرض الجرحى وخدمة الجند ، كما فعلت عائشة بنت أبي بكر وأم سلمة يوم أحد أيضاً . وقد بقي هذا الجهاد في العصر الثاني ، وإن كان الحجاب قد

أحاطه بشيء من الآداب ونجد منه بما يلائم طبيعته . فلم نعد نسمع عن طواف النساء بين صفوف الجند ، وهن مشمرات يرى الناظر إليهن خدم سوقهن كما حدث أنس عن عائشة وأم سلمة . ولعل خيمة رفيعة : يوم الخندق بداية التطور أو سلم الانتقال . فغزوة الخندق كانت في آخر العصر الأول أو بين العصرين .
وتأكيداً للتطور الجديد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأُم سنان الإسلامية بالخروج معه إلى خيبر ، على أن تكون مع أم سلمة تغرز السقاء وتداوى الجرحى وتعد الطعام ، وأم سلمة كانت يوم ذاك في قبة ضربت لها ، فهي لا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

وأما ما قيل من أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر ست نسوة كن قد خرجن يداوين ويمرضن يوم خيبر بالانصراف ، فإما كان ذلك لخروجهن دون اذنه وبغير أمره ، ومن أجل ذلك قال لهن غاضباً « ما أخرجكن وبأمر من خرجتن » ولو قد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر لخروجهن لمرضى الجرحى ومداواة المرضى ، لما أذن لأُم سنان وصواحبها بالخروج فقال لها : - « إن لك صواحب قد أذنت لهن . فكوني مع أم سلمة » وقد كان ذلك في خيبر بعد فرض الحجاب .
وقد حدث يوم حنين أن جاءت كبشة القضاية تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج كي تداوى الجرحى والمرضى ، فنهاها قائلاً « لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن إجلسي » والذين يفتنون عند ظاهر الحديث يقولون مقالة ابن حجر ، إن نهى الرسول كبشة ناسخ لأذنه لأُم سنان . والواقع أننا لا نميل لهذا الرأي ، لأن خروج المرأة بحجة في خيمة خلف صفوف الجند ، لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، إلا من تداوى من الجرحى والمرضى ، لا ينافي طبيعة الإسلام أو طبيعة العصر الذي فرض فيه الحجاب .

فلننظر إذن إلى الحديث الشريف نظرة أعمق ، ولنحط بالظروف التي قيل فيها ، قبل أن نرى رأياً أو نصدر حكماً .

إن المسلمين يوم حنين كانوا أكثر ما يكونون عدداً ، حتى لقد ظنوا أنهم لا يغلبون بعد يومهم ذاك من قلة ، ومن أجل ذلك دخلهم العجب ، وعانبتهم ربهم إذ أعجبتهم كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئاً ! ولا شك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يرى أمامه هذا العدد العديد من الرجال فإنه لا يقبل امرأة ، إنما كان يقبل من قبل لقلة المؤمنين وكثرة العدد من قريش واليهود . فلم يكن بد من أن يلاقى العدو بأكثر عدد من الرجال . ولن يقيسر له ذلك إذا أعرض عن كل امرأة تأتيه لتكفي الرجال مئونة التمريض والمداواة والخدمة العامة فيفرغوا هم للقتال .

ولعل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن تكون سنة . . . » ما يبين لنا قصده الكريم . فلقد كان عليه السلام يخشى أن يكون خروج النساء طريقة متبعة وسنة مؤكدة . فلا يخرج جيش دون أن يصحب معه فرقة منهم ولو كان غنيا بالرجال . فأراد عليه السلام أن يشرع للجيش الخروج دون نساء كما شرع له من قبل الخروج بالنساء .

فالقاعدة العامة أو المبدأ السكلي في هذا المقام أن نهى للنساء الحجاب ، وإن نمنع اختلاطهن بالرجال . فأما أن يخرجن للتمريض واعداد الطعام وما شابه ذلك أو لا يخرجن فتلك قاعدة فرعية تختلف باختلاف العصور والأحوال . فقد نجد في معركة تقصصاً في رجالنا ، فلا نزيد النقص بأن نفرض على فريق منهم مداواة الجرحى واعداد الطعام . وإنما ندفع هؤلاء إلى صفوف القتال ، ونأتي بالنساء من خلف الصفوف يمرضن ويداوين وقد تحلين بالحجاب ، وأعدت لهن

خيام أو مباني تليها السيارات أو الطائرات أو غير ذلك من وسائل الانقاذ التي تمكنهن من النجاة إذا اخترق العدو صفوف المقاتلين . وقد نجد في وقت آخر كثرة في الرجال ، فلا نأذن للنساء . ولن يحول قعودهن دون ان ينلن شرف الجهاد ، فلقد روى ان اسماء بنت يزيد جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : - بأبي أنت وأمي يا رسول الله إني وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك للرجال والنساء كافة فآمنا بك وبأهلك . انا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم حاملات أولادكم . وانكم معاشر الرجال فضلتم بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل ذلك كله الجهاد في سبيل الله عز وجل . وان أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم ، وربنا لكم أولادكم ، أفنشاركم في هذا الأجر والخير ؟ » فالتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مسألة امرأة قط ، أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ قالوا يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى هذا . فقال عليه السلام لاسماء : افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء ان حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله »

ولقد رأينا النساء بعد حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم يشاركن في الجهاد بما يلائم طبيعتهن كما كن يشاركن حكومته . فلقد حدث الطبري أن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت « شهدنا القادسية مع سعد - تقصد القائد ابن أبي وقاص - مع أزواجنا ، فلما اتانا ان قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا المراوى ، ثم اتينا القتلى . فما كان من المسلمين سقيناه ورفقناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم به »

وهذا يؤكد ما قدمناه من جواز خروج المرأة للتمريض والخدمة العامة عندما يستد
خطر المعارك كما اشدت يوم القادسية ، فقتشد الحاجة إلى جهود الرجال في صفوف
القتال وإذا تأملنا قول أم كثير « فشدتنا علينا ثيابنا » تبين لنا الحرص على
الحجاب ، وقولها فلما اتانا ان قد فرغ من الناس » ثم قولها « وتبعنا الصبيان »
علمنا انهن قمن بعملهن بعد أن أنصرف الرجال من صفوف القتال ، فلم يكن
معهن الا الصبيان ، ولم يكن يخالطن الرجال .

الحجامة

كان عليه السلام يهتم باقتفاء أخبار العدو ومعرفة أسرارهم واستطلاع خباياهم فكان يبعث العيون ليأتوه بخبرهم ، فقد أرسل عبد الله بن جحش سنة اثنين للهجرة في اثني عشر مهاجراً بعد أن دفع إليه كتاباً أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين . فلما مضى اليومان نظر عبد الله في كتاب رسول الله ، فإذا فيه « إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » كما أن الرسول عند ما علم بعير أبي سفيان تحمل خيرات قريش كلها إلى الشام أمر نفرًا من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله أن يجعلها لهم . فلما اقتربوا من الصفراء بعثوا بسيس بن عمرو وعدى بن الرعباء إلى بدر يستطلعان أخبار العير . وقد ذهب رجلان من المسلمين إلى بدر يستقيان ويتنطسان الأخبار . وبينما هما كذلك إذ بمجارية تطالب أخرى بدين عليها ، فتجيبها صاحبتهما أن سوف تعطيها الذي لها عند ما تأتي العير في الغد أو بعد الغد ، فتعمل لهم ، وتؤجر منهم . فيسرع الرجلان إلى رسول الله يخبرانه بيوم قدوم العير . ثم إن الجمع لما قاربوا بدرًا وتسابقوا إلى الماء ، بعث الرسول علياً وسعداً والزبير إلى بدر يتحسسون . فجاؤه بعبد بن قريش وهو قائم يصلي . فلما انتهى من صلاته سألهما عن مكان قريش . فقلا « وراء هذا الكتيب » ثم قال لهما « كم القوم ؟ » فقلا « لا علم لنا » فقال « كم ينحرون كل يوم ؟ » فقلا « يوماً عشراً ويوماً تسعاً » فقال صلى الله عليه وسلم « القوم ما بين تسعمائة والف » ثم قال لهما « فمن فيهم من اشراف قريش ؟ » قالا

« عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنفر بن الحرث ، وزمعه بن الاسود وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

وفي غزوة أحد بعث الرسول أنساً ومؤنساً ابني فضاله يلتزمان قريشاً . فعلما أنها قاربت المدينة ، واخبرا الرسول بذلك . وبعث من بعدهما الحباب بن المنذر فأتاه بخبرها . ولم يلبث أن خرج سلمه بن سلامة فرأى قريشاً تسرع بخيلها حتى لتسكاد تدخل المدينة ، فرجع إلى القوم يحدّثهم بما رأى .

وفي غزوة المريسيع عندما علم الرسول أن الحرث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق خرج في قومه ليحارب المسلمين ، ارسل بريدة بن الحصيب الأسلمي يتأكد له الأمر . فلما اتى الحرث وعلم اخباره ، رجع إلى رسول الله يقص عليه ما سمع . فما كان من رسول الله إلا أن ندب المسلمين للقاء بني المصطلق .

وفي غزوة الخندق عندما علم الرسول أن قريظة قد نقضت عهدها وانضمت إلى حيي بن اخطب عدو الله ورسوله ارسل سعد بن معاذ وسعد بن عباد وعبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ليعلموا أمر قريظة ويروا أن كانت على عهدها مع رسول الله أم خرجت عليه . فلما سأل هؤلاء كعب بن أسد وقال لهم « لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » انصرفوا إلى رسول الله يخبرونه .

وفي سنة ست من الهجرة قبل صلح الحديبية أو عهدها بعث الرسول عدة سرايا كان منها سرية عكاشة بن محصن الأزدي الذي خرج في أربعين رجلاً إلى النمر . وقد أرسل هؤلاء الطلائع - جرياً على سنة رسول الله - فوجدوا من

ولهم على ماشية أعدائهم فغنموا مائتي بعير ساقوها إلى المدينة . وعند ما خرج الرسول ليعتمر - عمرة الحديبية - في ألف وبضع مئات من أصحابه وبلغ ذا الحليفة ، بعث عيناً له يستطلع فلما اقترب الرسول من عسفان أتاه عينه فسأله عما جاء به من أخبار قريش فقال له الرجل « قد سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم » وقبيل يوم حنين بعث عليه السلام عبد الله ابن أبي حذرد الأسلمي وأمره أن يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق ابن أبي حذرد حتى دخل فيهم وسمع منهم ما جمعوا عليه من حرب المسلمين ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

وقد كان المنافقون بالمدينة سماعين لقريش بمكة كما كانت قريش تحرص على استطلاع أخبار المسلمين كحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على استطلاع خبرها ، وإن كان حرصه - عليه السلام - وسيلة يدفع بها غائلة عدو أخرجه من داره وماله بغير الحق ، ثم أخذ يترصد به الدوائر ويبيت له بليل ، فأما حرص قريش فكان وسيلة تؤكد بها سياسة العدوان التي بدأتها بمكة ، ومن أجل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم موقف حازم ازاء من يحس عليه .

فقد ثبت أنه قتل جاسوساً مشركاً . إلا أنه لم يقتل حاطباً بن أبي بلتعة بعد ان كاد يخبر قريشا بمسير رسول الله إليهم ، لأنه كان من أهل بدر . وقصة ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تجهز لفتح مكة ، سارع حاطب يكتب كتاباً يقول « من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم » وأرسل الكتاب مع امرأة ، فجعلته في قرون في رأسها . وإذا ذلك أوحى الله إلى رسوله بما فعل حاطب ، فأرسل عليه السلام

علياً والزبير وقال لهما انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب إلى قريش فلما بلغا المرأة أخذتا منها الكتاب وأتيا به رسول الله ، فاستدعى حاطباً وسأله الأمر فقال « لا تعجل علي يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكنني كنت أمراً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد . وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي » فقال عمر بن الخطاب « دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله وقد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — « أنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فقال عمر وقد تفرقت عيناه بالدموع « الله ورسوله أعلم »

وقد اجتهد الفقهاء في هذه القصة يريدون أن يستخرجوا منها حكماً على الجاسوس المسلم ، فاختلفوا في آرائهم . فقال فريق منهم بالعفو عنه لأن الرسول لم يعاقب حاطباً ، ولم يأمر بقتله . وقال فريق آخر بوجوب قتله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما نهى عن قتل حاطب لظروف خاصة لا تتوفر في غير عصر النبوة ، وهي شهود غزوة بدر الكبرى . ويرى مالك رحمه الله هذا الرأي . ويرى الشافعي وأحمد وأبو حنيفة الرأي الأول . ونحن أميل إلى رأى مالك رحمه الله في وجوب قتل الجاسوس المسلم ، إلا أن تكون له مثل سابقة حاطب في الإخلاص لله ورسوله . وإن كان هذا الإخلاص أمراً نادراً ، فإنه ليس بممتنع . ومن أجل ذلك نميل كل الميل إلى ما رآه ابن القيم من أن قتل الجاسوس راجع إلى رأى الإمام ، فإن رأى الإمام في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان بقاءه أصلح استبقاه .

وليس لنا أن نعيب نظام التجسس ، لأن التجسس وسيلة من وسائل الحرب كالخدعة تماماً . وهو ليس أقبح من الحرب التي هي أصله وسببه . وإذا كنا لا نعيب على الإسلام حروبه ، لأنه لا يبدأ بها . وإنما يضطر إليها دفاعاً عن حرية العقيدة أو إصلاحاً للبغاة وردعاً للمعتدين ، فليس لنا أن نعيب عليه أخذه بنظام التجسس ، الذي نعهده ضرورة من ضرورات الحرب كما أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . فليس للمحارب أن يفعل أمر عدوه فلا ينظر ما يدبر له في الخفاء بل عليه أن يحذر ألا يعيهم ويحبط مؤامراتهم ويأخذ نفسه بأسباب الحيلة والحرص . والجاسوس إذا تبع الدولة المعتدية عدوَّ عمله نوعاً من الاعتداء والبدء بالحرب . فإذا كان تابعاً للدولة المعتدى عليها عد عمله نوعاً من الدفاع عن النفس ومن ثم يتبين لنا أن عمل الجاسوس المسلم لم يكن كعمل الجاسوس المشترك .

والذي نعيبه في نظام التجسس عامة ما تلجأ إليه الدول في العصر الحديث من اقحام النساء فيه اقحاماً يضيع العرض ويذهب بالشرف ويهدر العفة والكرامة فكم زحرت قوائم الجاسوسية في الحرب العالمية الأولى بأسماء النسوة الساقطات اللاتي بعن العرض والشرف لقاء الجس واستطلاع الأخبار ، فراقصن القادة وصاحبن الجند واستدرجن في الحديث . ومع أن طريقتهم أصبحت مفتضحة بعد الحرب العالمية الأولى ، فلم يبق قائد أو جندي يثق في امرأة تسأله عن أخبار الجيش ، ولم يبق مسئول من رجال الجيش يحمل خطط هجومه في جيبه ، أو يترك الوثائق السرية في غرفته ، إلا أن الدول لم ترفى ذلك كله مبرراً للاستغناء عن جهود المرأة في حقل الجاسوسية ، فزحرت قوائم الجاسوسية في الحرب العالمية الثانية كما زحرت في الحرب العالمية الأولى بأسماء الساقطات من بائعات العرض والشرف . واشتهر منهن « غريتا كاين » في فنلندا و« هيلفيغ دلبو » في الدنمارك

و « روث كورن » في بيرل هاربور . ولا عجب أن تكون هذه سياسة قوم لا يفهمون الشرف الإنساني ، فهم ينفكثون العهد ، ويضحون بالعرض ، ولا تأخذهم بمن يحاربون من الناس رأفة ولا رحمة . أي فرق هذا الذي نراه بين تعاليم الاسلام وبين أخلاق العالم في عصر العلم والمدنية !

العالم اليوم يضحي بالعرض من أجل الحرب !

والإسلام يحارب من أجل العرض !

فما أبعد الفرق ، ثم ما أبعد الفرق !

يرحم الله المعتصم يوم نادته امرأة مسلمة أذلها سيدها الرومي في ناحية من نواحي عمورية . فما كاد يبلغه نداؤها « وامعتصم ! وامعتصم ! » حتى أجابها « لبيك لبيك ! ثم لبيك لبيك ! » وسارع في اثني عشر فارس إلى عمورية فغزاها وإلى المرأة فحررها ، وإلى الرومي فأذله لها . وكان المنجمون يقولون إن عمورية لا تفتح حتى ينضح التين والعنب صيفاً ، فلم يسمع لقولهم ، وهاجمها ساعة بلغها شتاء ، فامتدحه أبو تمام قائلاً :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفايح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب !

الحرب خدعة

ولم تسكن الحرب تخلو من دهاء وخدعة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد بلداً أوهم أعداءه أنه يقصد غيره . ففي غزوة حنين كان يسأل عن طريق نجد ومياهاها وعمن بها من العدو ليشعر القوم أنه لا يريد حنيئاً . وهذه خطة طالما سمعناها عن قواد الحرب في هذا العصر فأثينا عليهم الثناء كله . وليست الحرب العظمى والحرب الأخيرة ببعيدتين عنا ، فكم كنا نسمع بالمناورات الحربية من المدافع وقذف القنابل ، إلى إعداد العد وتعبئة الجند في ناحية من نواحي إنجلترا أو ألمانيا . وكنا بعد قليل من التفكير نظن أن الحرب سوف توقد نيرانها في بلد ما تجاه تلك الناحية . كما كان العدو يلتقي معنا فيما نظن فيخدع كما خدعنا ، إذ لا يلبث أن يجد الحرب قد نشبت في غير هذا البلد الذي أعد العدة لحمايته فما نام الليل وما هدا النهار . وتسكون النتيجة المنطقية لهذه الخطة الخادعة أن تفتح البلدة التي قصدت وخدع أصحابها فأوهموا أن أعداءهم يريدون غيرها من البلدان إذ لم يحصنوها مثل ما يحصنون غيرها ، بل ربما سحبوا قواهم التي بها إلى هذه البلدة التي يظنون أن العدو يريد لها لما يرون من مناورات في هذه الناحية التي تقع تجاهها . ونظرة واحدة إلى القادة المحدثين في هذا العصر ثم إلى قائد المسلمين في عصرهم الأول تسكفي لتثبت أنهم أخذوا عنه بعض ما أدهشونا به ، أو أنه سبقهم إلى ما يظن بعض من جهل أنهم استحدثوه .

ولقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين نذبهم لقتل كعب بن الأشرف في أن يقولوا ما يشاؤون من كلام يخدعونه به ، فقد اشتد في إبداء

رسول الله وأصحابه ، فكان يهجوم في أشعاره ويشبب بنسائهم ، وبنقض ما عاهد الرسول عليه ، ويأتمر بقتله ، ويؤلب عليه كما فعل بعد غزوة بدر ، مما أغضب الرسول وجعله يقول « من لكعب بن أشرف فإنه قد آذى الله ورسوله » وما أن قالها حتى سارع محمد بن سلمة وعباد بن بشر وسليمان بن سلامة والحارث بن أوس وأبو عيسى بن حبر إلى كعب بن الأشرف . فلما جاؤه تقدم له أخوه من الرضاع سليمان فأظهر له المخاربه عن رسول الله وخروجه عليه وشكا إليه الجوع والفقر وسأله أن يبيعه وأصحابه طعاماً بعد أن يرهنوه أسلحتهم ، فقبل . وسارع سليمان إلى أصحابه يخبرهم ، فانتظروا كعباً حتى خرج إليهم من حصنه ، فقتلوه بسيوفهم وأقر الرسول مقتله . وقد عد بعض المستشرقين هذا الأمر عذراً وخيانة ! وهم بهذا الزور والبهتان إنما يكشفون عن حقدهم وغيظهم فما عرف الإسلام يوماً الغدر ولا كنهه عرف كيف يؤدب الغادر ، فإذا استقام كان بها ، وإلا فلا حياة له . وهذا رجل هجا وعاب ، ونقض وتآمر ، وغدر وخان ، ولا يستحي أبداً ! فإن أبقت عليه أمة ، ولم تقتص منه فسوف يجعل أهلها شيعاً ويعيث في الأرض فساداً . وإن اجتثته كما تحتث الأشواك ، فسوف تحيا آمنة مطمئنة لا تخشى غدرًا ولا شرًا . فمثل كمثل الشجرة الخبيثة التي لا تظل ولا تثمر وإنما تحوى بين أخشاب أغصانها . الحيات والعقارب والفئران . فهي لا تنفع الناس ولا تنجيهم من شر ما فيها . ولا خير إلا في إزالتها من فوق الأرض فالرسول صلى الله عليه وسلم إذ أشار بقتل كعب بن الأشرف لم يخرج عما تمليه الحكمة والحرص . ثم إن أماننا أمراً آخر لا نذكره لندفع افتراءات المستشرقين فما قدمناه كاف لأن يلجم ألسنتهم ويسكتهم عن مثل هذه الأقوال ، وإنما نذكره لأنه أمس بموضوعنا الذي نتحدث عنه : فقد نسوا - هدام الله - أن

الخدعة من أسلحة الحرب التي أقرتها الأمم جميعاً ، ولم تحرمها كما حرمت الغازات السامة في العصر الحاضر ، وكما سوف تحرم القنبلة الذرية إذا شاء الله . فهي ضرورة من ضرورات الحرب لا مناص منها لمن أراد النصر والغلبة . والرسول عندما ندب الناس لقتل كعب كان في وقت حرب وقتال إن لم يكن متصلاً فإنما هو سلسلة من الغزوات بين كل واحدة والأخرى فترة استعداد . وقد كان مقتل كعب بن الأشرف بين بدر وأحد في وقت يريد الرسول أن يتأهب فيه للحرب قادمة قد يشنها عدوه الموتور . وقد كان كعب يؤلب العرب على رسول الله بعد بدر ، فكأنما هو يحاربه أو يعد العدة لحربه . فالرسول إذ يأمر الناس بقتله إنما يبتدر عدواً له بالهجوم بعد إذ وثق من إصراره على حربه ، شأنه في بعض غزواته وحروبه . ولا يعاب عليه إذا قال لأصحابه ائذعوا كعباً ما دام في حرب أو قتال .

وفي غزوة الخندق جاء نعيم بن مسعود رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فزني بما شئت » فقال رسول الله له « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذلنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فذهب نعيم إلى بني قريظة ، وكان عشيراً لهم في الجاهلية فدخل عليهم ولما يعلموا بإسلامه وقال لهم « يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم » قالوا « صدقت لست عندنا بمتهم » فقال لهم « إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جأوا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه . وبلدهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره . فليسوا كأنتم ! فإن رأوا نهره أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلقوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا

طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من
أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه »
فقالوا له « لقد أشرت بالرأى » ثم مضى إلى قريش فقال لهم « قد عرفتم ودى
لكم وفراقى محمداً وإنه قد بنى أمر قد رأيت على حق أن أبلغكموه نصحاً لكم
فاكتموا عني » قالوا « نفعل » قال تعاملوا أن معشر يهود قد ندموا على
ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل
يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنعطيكهم
فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل
إليهم أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتبسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا
إليهم منكم رجلاً واحداً ! » ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم ما قال لقريش . وفي
ليلة السبت من شوال سنة خمس بعثت قريش وغطفان إلى بنى قريظة يدعونها
إلى قتال محمد . فاعتذرت قريظة بأن اليوم يوم سبت حيث لا يعملون احتراماً
لشعائهم ، ثم قالت « ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم
يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإننا نخشى إن ضررناكم الحرب واشتد عليكم القتال أن
تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » واعتقدت
قريش وغطفان بعد إذ سمعتا قول قريظة أن ابن مسعود صادق في قوله مخلص
في نصحه . وأرسلتا إلى قريظة تقول « إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من
رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا » واعتقدت قريظة بعد أن
سمعت قول قريش أن ابن مسعود صادق في قوله مخلص في نصحه . وامتنعت
عن القتال فخذل الله بينهم وفرق جمعهم ثم أرسل الريح والمطر ، والرعد والبرق ،
وقذف في قلوب الذين كفروا الرعب فولوا الأدبار .

فالخدعة من نظم الحرب في حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد حث
الرسول عليها حيث لا يصلح غيرها ، أو حيث تجدي هي أكثر من غيرها .
فرجل مثل كعب بن الأشرف ، كيف تصل إليه الرماح وقد تحصن بعد أن أهدر
الرسول دمه ، فأصبح طريد المسلمين ؟ هل غير الخدعة طريق إلى استدراجه
والقضاء عليه ؟ ! ورجل كنعم بن مسعود ، ماذا عساه أن يفعل أمام الأحزاب
مجموعة وهو رجل واحد لا عون له ؟ هل غير الخدعة طريق إلى حربهم ؟ .
لا شك أنها إن لم تكن السلاح الوحيد الذي يصيب الهدف حيث أشار
بها الرسول ، فهي خير سلاح يصيب ذلك الهدف .

الحرب الاقتصادية

وهذا النوع من أنواع الحروب عرفته الحكومة الإسلامية الأولى كما يعرفه الناس في هذه الأيام . وإن ذلك ليتجلى في غزوة بدر الكبرى . تلك الغزوة التي بدأت بمحاولة بذلها المسلمون ليضادروا تجارة قريش ، فقد خرج أبو سفيان في غير لقريش يبعث تجارة في الشام . فلما علم الرسول بهذه العير تحمل خيبرات قريش كلها أمر نقرأ من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله يجعلها لهم ، فتصاب قريش في مصالحها الاقتصادية ، وتضطر إلى الاذعان لما يرجوه المسلمون من إفساح سبيل الدعوة إلى الله . ولكن أبا سفيان سارع فغير طريقه وساحل البحر فنجأ بالغير . ومن العجب أن يطلع علينا بعض كتاب أوروبا بما يشف عما تخفيه قلوبهم من تعصب أعمى لدينهم ، وحقد دفين للإسلام ، فهم يسمون هذه السرايا قطعاً للطريق ، ولو أنصفوا لقالوا إنها هي حرب المصادرة التي أقرها القانون الدولي وعرقها الحروب الحديثة سلاحاً من أشد أسلحة الحرب مضاء وقوة ، ومن أقلها ضرراً بالنفوس وإزهاقاً للارواح . وهذه مجلة «تروث» اللندنية تحدثنا عن هذا النوع من أنواع الحروب فتقول : « إن الحرب الحديثة حرب مصادرات وتضييق ، فالجانب الذي يتغلب على الآخر في مصادرة بضائعه هو الذي يكسب الحرب ! إن الحصار البحري فضلاً عن إنه سلاح ناجح ، قد قل بواسطته عدد القتلى في الحروب ، فإذا أخفق في مهمته لم تكن الخسارة بالشئ الذي لا يحتمله المحاربون ، وقد جعلت البحرية البريطانية من همها أن يقل عدد السفن التجارية التي تفرق في عرض البحار ، إن الحصار البحري الناجح

- مع ماله من قوة - لا يحتاج في تنفيذه إلى شيء من العنف ، فقد تقضى السفن الحربية مدة الحرب جميعها دون أن تسمع كلمة « ارفع البندقية وكن مستعداً » وقد بلغنا عن طريق الأسر ومصادرة السفن ضعف ما بلغه عدونا بإغراق السفن بواسطة « الغواصات » . فالحصار البحري - وهو سلاحنا في الحرب - هو أقوى الأسلحة وأكثرها اقتصاداً في المال والأرواح .

اقرأ يا أخى هذه الفقرات التى كتبتها المجلة الإنجليزية ، وانظر كيف تشهد بأن حرب المصادرة أو حرب الحصار أو الحرب الاقتصادية إنما هى سلاح عبقرى من أسلحة الحرب وأنها ليست قطعاً للطريق كما يزعم الجهلة المتعصبون . وامنض معى لتعلم كيف عرف المسلمون الأولون هذا السلاح معرفة واسعة النطاق ...

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كاد ينزل أدنى ماء ببدر حتى قال له الحباب بن المنذر « يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال عليه السلام : لقد أشرت بالرأى ونهض حتى نزل بأدنى ماء من القوم ، ثم غور القلب وبنى حوضاً على القلب الذى أتاه . وما فعل عليه السلام ذلك إلا تقديرأ لآثر الحرب الاقتصادية فى سحق قوة العدو . فمنع الماء ومنع الطعام إنما هو سلاح من أسلحة الحرب لا ريب . وتحقيقاً لهذه السياسة الحربية ، كان عليه السلام يحصر أعداءه إذا ما اجتمعوا بقلاعهم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، حتى يستسلموا أو يخرجوا للقتال وقد حاصر بنى النضير وأهل خيبر والطائف . أما بنو النضير فقد أقاموا

في حصونهم وامتنعوا عن لقاء المسلمين ، فأرسل كبيرهم إلى رسول الله يقول « إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع ما بدا له » ... وما عساه أن يصنع ؟ هل أمامه إلا الحصار حتى يطلبوا الصلح ، أو إحراق نخلمهم حتى يخرجوا من حصونهم خوفاً عليها ؟ ولئن نادوه بعد إذ حرق نخلمهم « أن يا محمد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها » فقد قال تعالى للمسلمين « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » وقد ذكرنا في الفصل الثالث من الباب الأول ^(١) أن بني النضير قد بدؤوا بالظلم ونقض العهد . فمن شاء فليرجع ليقبس تحريق النخل بما فعلوا . ومما يذكر في هذا المقام قول الأستاذ أحمد حسين في كتاب الحرب « وعلى ذلك فإن ما تعتمد إليه الدول الحديثة من محاولة تدمير منشآت العدو العسكرية كالمصانع ، ومحطات توليد الكهرباء ، وخزانات المياه ، والجسور ، ووسائل المواصلات ، ومحطات السكك الحديدية ، وإتلاف الآلات الزراعية وكل ما من شأنه تعطيل الإنتاج وشل يد العدو عن مواصلة القتال هو جزء لا يتجزأ من شرعة القتال وهو واجب ومشروع من ناحية المدافع عن نفسه » .

أما أهل خيبر فقد كانت لهم حصون شتى يحتمون بها . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتتحها حصناً بعد حصن . بدأ بحصن ناعم ، ثم ثنى بحصن القموص . فحاصر اليهود فيه عشرين ليلة ، ولما تحصن اليهود بقلعة الزبير ، حاصرهم رسول الله ثلاثة أيام حتى جاءه رجل من اليهود وقال له : - « يا أبا القاسم : إنك لو أقت شهرأ ما بالوا . إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل

(١) حكمة الرسول « الجزء الأول » .

فيسربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعهم فيمتنعون منك . فإن قطعت مشربهم عليهم أبحروا لك » فقطع الرسول عليهم الماء ، وأجبرهم على ترك القلعة إلى حيث يلاقونه وأصحابه . ولما افتتح هذه القلعة تقدم حتى أتى آخر حصونهم « الوطيح والسلام » وقد احتفى القوم بها فهم لا يخرجون ، فحاصرهم رسول الله أربعة عشر يوماً وهم أن ينصب عليهم المنجنيق لولا أن سأله الصلح . وأما أهل الطائف فقد حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة كما يقول ابن إسحق أو سبع عشرة ليلة كما يقول ابن هشام . وكان عليه السلام يصلى مدة الحصار بين قبتين ضربتا لزواجه أم سلمة وزينب رضى الله عنهما .

وكي ندرك أثر الحرب الاقتصادية في تقرير مصير الحروب ينبغي أن نقرأ ما كتبه أحد كتاب الفرنجة إذ يقول « لقد كانت هزيمة ألمانيا الاقتصادية في الحرب العظمى الماضية أشد من هزيمتها في ميادين القتال ، فقد أنتج الحصار البحري نتائجه المشوذة فقلَّت الموارد ، ونقصت المؤن والذخائر ، وجاع الشعب الألماني ، فأرغم حكومته على التسليم ، وفي هذه الحرب - يقصد الحرب العظمى الثانية - تستخدم إنجلترا وفرنسا نفس هذا السلاح البقار ، ونحوضان غمار حرب اقتصادية ليست دون العسكرية إضراراً بالعدو وإضعافاً لروحه المعنوية . وقد بلغ من اهتمام إنجلترا بالحرب الاقتصادية أنها أنشأت لها وزارة خاصة ضمن وزاراتها ، واختارت لها رجلاً من رجالها وهو المستر « كروشن » الذي كان قبل ذلك سكرتيراً برلمانياً لمجلس التجارة . وقد اشتغل في عمل البنوك سنوات طويلة ، ثم رشح نفسه لعضوية مجلس العموم في سنة ١٩٣١ فانتخب كنائب من المحافظين وفعلت فرنسا مثل ذلك » .

عرب الله عصابة

وكان من نظم الحرب في حكومة الرسول التأثير في روح العدو المعنوية فليس كم كان يلد للرسول أن يعرف أعداؤه عنه القوة والبأس ، فتمتلىء قلوبهم رعباً ، ويستسلمون دون قتال . من ذلك ما حدث في عمرة القضاء . فما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ المسجد حتى قال « اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » ولقد أمر عبد الله بن رواحة أن ينادى بأعلى صوته أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فأخذ ابن رواحة يجر بهذا النداء الإلهي ، والمسلمون يرددون من ورائه في قوة وحماسة وإيمان ، فترنج أرجاء مكة ، وترتجف قلوب قريش إذ تسمع كلمة التوحيد عالية مدوية ، وترى الإيمان يتدفق من قلوب زاداها حياة وملأها قوة ، فتعلم أن القوم الذين فارقوا الأوطان من أجل العقيدة ، لن يتخلوا يوماً عنها ولو فارقوا الروح من أجلاها ومن ذلك ما حدث يوم الفتح . فقد خرج الرسول في عشرة آلاف من المسلمين يريد قريشاً . ولقي ببعض الطريق عمه العباس ، فأذن له بالذهاب إلى أهل مكة ، يخبرهم بما رآه من قوة جيش المسلمين ، وكثرة عددهم وعدتهم ، حتي يأخذهم اليأس والفرع فلا يقاتلوا وتصبح مكة بلداً حراماً كما يجب أن تكون فركب العباس بغلة الرسول البيضاء ، ومضى إلى مهمته . فقابل أبا سفيان وهو يستطلع لقريش ، فناداه قائلاً :- « ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة ، فقال له أبو سفيان في ذلة وضعف : فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ » فأجابه العباس بقوله « والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك »

فركب أبو سفيان خلف العباس وأسلم بين يدي الرسول .
ولما أسلم أبو سفيان أمر الرسول بحبسه حتى تمر به جيوش المسلمين فيحدث
قومه بما يرى . فلما مروا عليه قال للعباس بعد أن ذهل بهذه السكتائب التي
لم يكن يظن أن تتجمع لرسول الله يوماً : - « يا عباس . مالأخذ بهؤلاء قبل ولا
طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك العداة عظيماً » ثم أسرع إلى
قومه فناداهم أن يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن
دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد
فهو آمن » وكان لهذا أثره العظيم في نفوس قريش ، فقد تفرق أبناؤها : فزيق
إلى المسجد وآخرون إلى دورهم أو إلى دار أبي سفيان . ولم يلق منهم رسول الله
حرباً أو قتالاً إلا في أسفل مكة حيث خالد بن الوليد .

وغنى عن البيان أن هذا الذي حدث في عمرة القضاء وغزوة الفتح ، مما
قدمنا الحديث عنه إنما هو حرب الأعصاب في مصطلحات السياسة الحربية
المعاصرة . وهو سلاح حرصت عليه الدول الحديثة في الحرب العالمية الأخيرة كل
الحرص فكم راجت تلكم الشائعات التي راحت تعلن في كل مكان عن أسلحة
سرية جديدة تفتك بالعدو فتسكا ذريعاً إذا استعملها أصحابها ، وكما سمعنا عن
الغرفة رقم « ١٣ » التي هدوت المانيا بما تحويه من سلاح خطير ، أو عن
الطائرات « الاوتوماتيكية » التي تنطلق دون طيار ، أو عن « الطربيد » الذي
يصيب الهدف ، ولو تحرك الهدف عن مكانه . إلى غير ذلك من الشائعات
التي لم نرها الاخيالاً طائراً لا يعرف الحقيقة الواقعة ابداً . وليس من شك
في أن هذه الشائعات إنما هي حرب الأعصاب بعينها . تلك الحرب التي
تؤثر في الروح المعنوية أبلغ الأثر ، فتعجل بالهزيمة والإستسلام .

وكي ندرك قيمة هذه الحرب ينبغي لنا أن نسجل مقدار اهتمام الدول بها في الحرب العالمية الثانية» فلقد كانت ألمانيا تنفق على الدعاية الخارجية بسخاء غريب . إذ بلغت ميزانية وزارة الدعاية الألمانية عشرين مليوناً من الجنيهات ، حتى لقد استقال الدكتور شاخت مدير بنك ألمانيا احتجاجاً على سياسة جوبلز الذي كان يستنزف كل ما لديه من خزائن البنك من الذهب نشرّاً للدعاية في جميع البلاد . ولكن هتلر آثر دعاية جوبلز على ذهب شاخت وما حرب الأعصاب التي حطمت كثيراً من الدول واذلت كثيراً من الشعوب إلا لون من ألوان الدعاية التي يقوم بها ذلك الداعية الخطير جوبلز » ^(١)

(١) من مختارات مجلة الهلال .

الطابور الخامس

والطابور الخامس تسمية حديثة لتلك العناصر الداخلية التي تعين الغزاة بالجلس واستطلاع الأخبار وتثبيط الهمم . وقصة هذه التسمية ان أحد قادة الجنرال فرانكو في الحرب الاهلية الاسبانية كان يقود أربعة فرق من الجيش ليحتل بها مدريد . فقبل له كم تقود من فرق الجيش ؟ قال خمسة ! قيل وأين الخامس ؟ قال داخل مدريد ! وإنما يقصد بذلك انصار الجنرال فرانكو فيها . ولقد كان الطابور الخامس في الحرب العالمية الأخيرة شراً مستطيراً يفيل مقاومة الدول ويجعلها فريسة للمستعمرة في أقل من لمح البصر . فلقد كان يعين جنود الهابيلات (الباراشوت) على تدمير خزانات المياه ومراكز المواصلات الحديدية ، ومحطات توليد القوى الكهربية ، كما كان يدير دفة حرب الأعصاب بما يوهن العزائم ويدفع إلى اليأس القاتل والتسليم الذليل . ومن هنا عملت الدول على مقاومته وإخلاص منه ما وسعها الجهد .

ولقد كانت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم احرص الحكومات على درء هذا الخطر ، واقدرها على الخلاص منه ، بما أخذت عن القرآن الكريم من دروس اليقظة والحذر ، والقوة والحزم . فلئن كان الطابور الخامس قد عجل من استسلام بعض دول أوروبا في الحرب العالمية الأخيرة ، لقد كان أظهر من أن يغيب عن أعين الحكومة الإسلامية الأولى ، وأوهن من أن ينال منها أو يقف أمام حزمها وقوتها . والطابور الخامس إذ ذاك قد كان يتكون من عنصرين اثنين ، هما اليهود والمنافقون .

فأما اليهود فقد ألهم الله رسوله الحذر منهم أول عهده بالمدينة ، حتى لقد

عاهدكم عهداً يحذرهم فيه من الظلم والسكران للمسلمين ، وينذرهم إذا هم فعلوا شر
الجزاء وسوء المصير ، فقال « لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم
الا من ظلم وأثم فانه لأ يوتغ (يهلك) الأ نفسه وأهل بيته » وقد قدمنا القول
عن هذا الحديث في الفصل الثالث من الباب الأول^(١) فقلنا « وإنما يعنى الرسول
صلى الله عليه وسلم بالظلم ما قد يقوم به اليهود من محاولات لايحاد الفتن وصد
الناس عن الدخول في الإسلام ، إلى غير ذلك من الأمور التي تضر الإسلام
أبلغ الضرر ، وتقف حجر عثرة في سبيل انتشاره وتقدمه .

وقوله للظالم منهم إن ظلمه ان يكون الا ظلماً لنفسه ، إنما هو تهديد لهم ،
وإظهار لقوة المسلمين وبأسهم ، وتحذير لهم مما قد تسوله لهم أنفسهم أو تزينه
لهم شياطينهم . وقد كرر الرسول هذا المعنى في وثيقته مراراً ، فكأنما كان
يشعر انه لن يتم بين اليهود والمسلمين وفاق ، لأن اليهود سينزعون إلى العداوة
والشقاق ، والدس والسكران والنفق ، فيقطعون العهد والميثاق ، فأراد أن يلتمس
لنفسه العذر إلى الله والناس والضمير ان هو نكل بهم بعد ظلمهم وخروجهم
على العهد الذي بينه وبينهم . فقد أنذرهم كثيراً ، وقد أعذر من أنذر .

ولا شك أن هذا الانذار والتهديد إنما أراد به الرسول صلى الله عليه وسلم
أن تسقر الحال في المدينة فلا يكون هناك نزاع داخلي بين المسلمين واليهود ،
فتستغل قريش الفرصة ، الأمر الذي يمنع الرسول من نشر الإسلام خارج
المدينة « ثم انه صلى الله عليه وسلم قد قدر ما قد تقوم به العناصر الداخلية أو الطابور
الخامس من جس لقريش فخرم خروج اليهود من المدينة بغير اذنه ، ونهى على
ذلك في وثيقته ولقد قدمنا الحديث عن ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول^(١)
أيضاً فقلنا « فقد كان عليه السلام يتوقع غدر اليهود به ، ويشك في اخلاصهم

(١) حكومة الرسول ، الجزء الأول

له ، فخرم عليهم الخروج من المدينة بغير إذنه ، كي يراقب حركاتهم ، ويقف على أمرهم ، ويأمن في الوقت نفسه شرهم . فليس ببعيد أن يخرج منهم من يفشي أسرار المسلمين ، ويخبر قريشاً بما يود الرسول لو كتمه عنها . وليس ببعيد أيضاً أن يخرج من اليهود من يؤلب القرشيين على رسول الله فيشعل بين الفريقين نيران الحرب والمكيدة .

ولقد حدث فعلاً أن خرج كعب بن الأشرف - أحد زعماء بني النضير - من المدينة بغير إذن الرسول ، وذهب إلى مكة يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينشد الأشعار في رثاء قتلى قريش يوم بدر ، ويشبب بنساء المسلمين حتى أهدر الرسول دمه فقال « من لكعب بن أشرف فانه قد آذى الله ورسوله » . ولقد كان جزاء بني النضير بما كادوا للمسلمين وتماثلوا مع قريش أن نكل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد أسلفنا القول عن ذلك في الجزء الأول من الكتاب .

وقد قام بنو قريظة بدور الطابور الخامس بعد ما حلى الرسول اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير عن المدينة . وقصة ذلك أن كبير بني النضير حي بن اخطب خرج من خيبر - التي نزل بها بعد جلانه عن المدينة - إلى مكة يؤلب قريشاً على رسول الله . فسألوه عن قومه فقال : - تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . ثم سألوه عن بني قريظة فقال « أظاموا بالمدينة مكرأً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معهم » ومعنى ذلك أن حي بن اخطب أردا أن يتخذ من بني قريظة « طابوراً خامساً » ، إذ أنه علل بغاءهم في المدينة بالسكر لمحمد ، وذكر أنهم ينتظرون الحرب الخارجية ، ليقوموا بدورهم من الداخل فيأتوا المسلمين من فوقهم بينما الأحزاب تأتيهم من أسفل منهم كما

قال الله تعالى (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار
وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا : هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا
زلزلاً شديداً) .

ولخطورة الدور الذي يلعبه « الطابور الخامس » نزل الله الروح الأمين
ليأمر رسوله بقتال بني قريظة ، فاستجاب الرسول لأمر ربه وأمر المسلمين
الايصلوا العصر الا في بني قريظة ، حثاً لهم على السرعة في الذهاب اليهم
واللحاق بهم ، فسارع المسلمون اليهم ، وحاصروهم حتى نزلوا عند حكم
رسول الله فيهم .

* * *

أما المنافقون فقد كانوا ينتهزون الفرص ليكيدوا للإسلام والمسلمون . من
ذلك ما حدث بعد غزوة بني المصطلق ، إذ ازدحم اجير لعمر بن الخطاب يقود
فرساً مع رجل من الأنصار على الماء فتشاجرا ، وكادت الفقة تشمل المهاجرين
والأنصار جميعاً لولا أن أصلح الرسول الكريم ذات بينهم ، وألف - بفضل الله
بين قلوبهم . ولكن ابن أبي شيخ المنافقين ما كان ليترك هذه الفرص تغلت
من يده دون أن يستغلها استغلالاً سيئاً دينياً ، فلقد أخذ يحدث من حوله من
الانصار قائلاً « ما رأيت كاليوم مذلة ! لقد كاثرتنا المهاجرون في ديارنا . والله
ما اعدنا وإياهم إلا كما قال الأول سمن كلبك يا كلك ، إما والله لن رجعنا إلى
المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل : وظل يبث أفكاره السيئة ليقوض اركان الأمة
الإسلامية الناشئة . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم افسد عليه كيده هذا
بحسن سياسته ، إذ أمر المسلمين بالرحيل في ساعة شديدة الحر كي يشغلهم عن
الحديث بدعوى الجاهلية .

ولقد همت طائفة منهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هموا بما لم ينالوا ، فقد احبطت يقظة المؤمنين خطتهم وافسدت عليهم تدبيرهم .
والذى نلاحظه في هذا المقام أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقاتل المنافقين كما قاتل اليهود . بل لقد رفض أن يقتل رئيسهم لما سأله عمر ذلك . ويرجع ذلك إلى أمور .

(أولاً) أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يريد أن يتهم بقتل أصحابه كي لا ينفر الناس من دينه ، وفي ذلك يقول لعمر : « كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ؟ ! » .

(ثانياً) أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يستميل المنافقين إلى الإسلام بلطفة وعفوة ، حتى أنه لما أحسَّ بنجاح سياسته قال لعمر « كيف ترى يا عمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله ، لا رعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم أن تقتله لقتلته » فقال عمر « الخير ما رأيت بارسول الله » .

(ثالثاً) أن اليهود كانوا يجاهرون الرسول بالعداء ، ويسبونه في غير استحياء ويتحدونه ساعة اللقاء ، فاستحقوا منه النكال والإجلاء ، فأما المنافقون فكانوا يعملون من وراء حجاب ، فاذا عوتبوا أقسموا أمام رسول الله ما فعلوا ، فظاهرهم للموادة وباطنهم السكيد والنفاق ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحكم على الظاهر ويكل السرائر إلى الله .

وفي ذلك يقول ابن القيم « أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم مصلحة تنصل بتأليف القلوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع كلمة الناس عليه وكان في قتلهم تغيير والإسلام بعد في غربه ورسول الله أحرص شيء على تأليف الناس وترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته . وهذا أمر كان محتض بحال حياته صلى الله عليه وسلم » .

رجع الى قواعده سالماً !

ومن خير ما يذكر لقادة الحرب في الحكومة الإسلامية الأولى ، مقدرتهم على الخروج من مأزق القتال دون أن يصيبهم سوء أو يلحقهم أذى . فلقد حدث يوم مؤنه أن قتل زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحه وهم الذين قادوا جيش المسلمين الواحد بعد الآخر . واصطلمح الجند على خالد بن الوليد ، فحمل اللواء وقادهم .

تولى خالد القيادة ، فأصبح في حيرة من أمره ، فهو لا يدري ماذا يفعل . . . أيقا تل فيقتل ، ثم يصطلمح المسلمون على قائد آخر يتقدم للقتال فيقتل وهكذا حتى يفنى جيش المسلمين ؟ لا شك أن الحكمة تتطلب غير هذا السبيل . . وقد كان خالد حكيماً إذ آثر الرجوع من حيث أتى . وهنا تتجلى العبقرية : فمن أسهل الأمور على الجيوش أن ترتد وتتقهقر وسهام العدو ونباله تسكاد تفتك بها وتمزقها شرمزق .

ومن أصعب الأمور عليها أن ترجع سالمة قبل أن تحل بها الهزيمة التي رأت بواردها ؟ ! .

وقد رأى خالد بوادر الهزيمة بموت من سبقه من القواد . وقد خلاص جيش المسلمين من هزيمة محققة . فيا لها من عبقرية ! لقد بدل خالد مواقف الجيش مخفئيا في ظلمة الليل . فنقل اليمينه إلى اليسرة ، واليسرة إلى اليمينه . وجعل المقدمة في موضع الساقة ، والساقة في موضع المقدمة . وأقام من خلف الجيش أناساً

يثيرون الغبار ، ويكثر الجلبة والضوضاء : فرأى الروم وجوها غير التي رأوها ، وسمعوا اصواتاً شتى . فاعتقدوا أن العرب قد واتهم المدد . وإذا كان العرب على قلتهم لم يهربوا كثرة الروم ، بل اندفعوا يقاتلون ويقتلون ، فكيف بالنصر لا يكون حليفهم إذ زاد عددهم وعدتهم . . لا شك أن الروم قد بدءوا يؤثرون السلم خوفاً من الهزيمة الموهومة . . وبينما الروم في هذه الرهبة والانحلال النفسى إذ بخالد يدفع بنفسه إلى صفوفهم ضارباً بسيفه ورمحه . راداً إياهم عن المسلمين الذين اخذوا يرتدون إلى المدينة .

وبذلك رجع خالد إلى قواعده سالماً !

وهذا الفن من فنون الحرب يكبره القادة في هذه الأيام ، فقد طبل الحلفاء وزمروا وملثوا الصحف فخرأ بقادتهم عندما انسحبوا انسحاباً موقفاً من بلجيكا في الحرب العالمية الأخيرة ، بعد أن شهدوا معركة الفلاندر الرهيبة . ولست انكر ما في انسحابهم هذا من مهارة وحذق . فلقد كان موقفهم اشد ما يكون حرجاً بعد أن استسلمت قوات البلجيكيين للألمان . . وقد كانت تحتل أهم المواقع في جيوش الحلفاء . فما كاد الجيش البلجيكي يلقي السلاح ، حتى احتل مواقعة الألمان ، وحاصروا قوات الحلفاء ، ولم يكن بد من الانسحاب ، ولكن الجيش المتسحب ما كاد ينظر إلى الخلف حتى وجد طريق الانسحاب ضيقاً ، تحده المناطق المائية من جانبه ، ويسده البحر من آخره . ولقد زاد ضيق الطريق من حرج الموقف ، إذ أن تجمع القوات الكبيرة في البقعة الصغيرة يمكن طائرات العدو منها أكثر مما لو انتشرت في بقعة واسعة من الأرض . اصف ذلك إلى اعتمادهم في الانسحاب على ميناء دنكرك وحده ، بعد أن تعذرت الملاحة في بعض الموانئ الأخرى نتيجة لاغراق بعض السفن المحملة بالأسمنت فيها .

لست انكر - والحالة هذه - أن انسحاب الخلفاء فيه كثير من البراعة
الحربية والحذق العسكري . إنما الذي احب أن أسجله هنا أنهم لم يفعلوا أكثر
مما فعله المسلمون في سرية مؤته ؛ وأن قادة الحرب في حكومة الرسول قد سبقوا
عبارة القتال في القرن العشرين بيد أنهم لم يتعلموا القيادة في المدارس والجامعات
وإنما تعلموها على رمال الصحراء ! .

بجدة الحرب

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشورة لأصحابه في أمر الجهاد وأمر العدو وتخير المنازل . وكان كثيراً ما ينزل عند آرائهم ويأخذ بمشورتهم .

ففي غزوة بدر لما بلغه خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فأجادوا . ثم استشارهم ثالثاً يريد الانصرار . فلما تكلموا بما يرضيه سار حتى بلغ بدرأ ، فنزل بأدنى ماء منها : فقال له الحباب بن المنذر : « يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه . ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى نزل بأدنى ماء من القوم ، ثم غور القلب وبنى حوضاً على القلب الذي أتاه . وقد قال سعد ابن معاذ لرسول الله « يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً نكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله يهاضمونك ويهاضدون معك » فدعا الرسول له بالخير ونزل عند مشورته ، فكان في العريش لما بنى له . . . وفي غزوة أحد استشار الرسول أصحابه : — أخرج إلى أعدائه أم يمكث في المدينة ؟ وكان عليه السلام

يرى المكث في المدينة والتحصن بها حتى إذا قدمها المشركون قاتلهم الرجال في الأزقة والنساء من فوق البيوت ولكن القوم أشاروا عليه بالخروج إلى العدو حتى لا يظن أنهم جبنوا أو ضعفوا عن لقائه . فلما رأى الرسول إجماعهم على ما يرون وإلحاحهم في الخروج ، سارع إلى بيته ولبس لامته ، فظن الصحابة أنهم أكرهوا رسول الله على الخروج وقالوا « يا رسول الله إن أحببت أن تتمكث في المدينة فافعل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينهى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » فلم يستبد الرسول برأيه إذن ، ولم يكره أصحابه عليه ، بل عمل برأى الأغلبية منهم ، وخرج للقاء قريش . وفي غزوة الأحزاب استشار الرسول أصحابه في أمر عدوه . فأشار عليه سلمان الفارسي رضى الله عنه بحفر الخندق وتحصين المدينة من الداخل . فلم يضرب الرسول بمشورته عرض الحائط ، ولكنه نفذها ، فأمر المسلمين بها ، وشجعهم عليها . وإن استشارة الرسول لأصحابه قبل أن تبدأ المعارك تشبه بما نعرفه اليوم باسم « مجلس الحرب » : ذلك المجلس الذى يضم قادة الحرب وأساطين السياسة ، ويبحث شئون القتال وتطورات الموقف الحربى . ولقد كان قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لمشورة أصحابه أو « مجلس حربه » دعامة هامة من دعائم النصر الذى أحرزه .

ولقد أيدت الحروب الحديثة أن اعراض الزعماء عن مشورة القادة وآراء الخبراء ، واستبدالهم بالأمر فى شئون القتال . يؤدى حتما إلى الهزيمة الساحقة والخسران المبين .

مجلس الأمن الإسلامي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس إعجاباً بفكرة الأمن والسلام ورد الظلم والعدوان . ولقد شهد جماعة تحيي هذه الفكرة في الجاهلية فأثنى عليهم بالخير . وقصة ذلك أن رجلاً من بني زبيد قدم مكة معتمراً في الجاهلية ومعه تجارة له ، فاشتراها منه العاصي بن وائل السلمي ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، ثم تغيب ، فابتغى الزبيدي متاعه فلم ينله ، فجاء إلى بني سهم يستعديهم على العاصي بن وائل ، فأعرضوا عنه . فأخذ يطوف بقبائل قريش يستعين بهم ، ولكن عبثاً . فلقد تخاذلت عنه وانتهره الاحلاف حتى إذا خشي الزبيدي على متاعه أوفى على « أبي قبيس » عند طلوع الشمس وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة . فصاح فيهم مستنجداً . فأغاثه الزبير ابن عبد المطلب ، وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش ليمنعوا القوى من ظلم الضعيف والقاطن من ظلم الغريب ، فقال :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار

نسمة الفضول إذا عقدنا يعزبه الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

ثم قال الزبير : إني والله لأخشى أن يصيبنا ما أصاب الأمم السالفة من ساكني مكة ، ومشي إلى عبد الله بن جدعان وهو يومئذ من شيوخ قريش ، فخطبه في ذلك ، واجتمعت كلمة بني هاشم وبني عبد الأسد وبني زهرة وبني مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا . وكانت حرب الفجار في شعبان وحلف الفضول بعدها في ذي القعدة قبل مبعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم بعشرين سنة . فتحالفوا في شهر حرام قياماً بآساكون با كفهم ،
وتماهدوا بالله ليكونن يداً واحدة على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر
ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه ثم عمدوا إلى ماء زمزم ، فجعلوه في جفنة وبعثوا به
إلى البيت ففسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشريه ، ثم انطلقوا إلى العاصي بن
واثل فقالوا « والله لا نفارقك حتى تؤدي إليه حقه ، فأعطى الرجل حقه ومكثوا
كذلك لا يظلم رجل بمكة إلا أخذوا له حقه .

وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف . فقالت عائشة فيما روى
عنه أنه قال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول أما لو
دعيت إليه اليوم لأجبت . وما أحب أن لي به حمر النعم وأني نقضته » .

فلقد كان عليه السلام يعترف بفكرة الأمن . ورد المظالم ، تلك الفكرة التي
أحيها الإسلام في هذه المادة من دستوره الحربى « وإن طائفتان من المؤمنين
اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى
تتقى إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب
المقسطين » .

وهذه المادة من دستور الإسلام الحربى هي ميثاق مجلس الأمن الإسلامى .
وهى تتركز في خطوات ثلاث :

(أولاً) الصلح : وهو محاولة يبدلها ممثلوا الأقطار الإسلامية لإصلاح ذات
البين بين الطائفتين ، فيدرسوا أسباب الخلاف ، ويعينوا المعتدى والمعتدى عليه
فإن أفلحوا في صد المعتدى بالحكمة والموعظة الحسنة فيها ، وكفى الله المؤمنين
القتال .

(ثانيا) القتال : وإذا لم تجد الوسائل السلمية لم يكن بد من ردع المعتدى بالقوة حتى يقلع عن غيه . ووسيلة مجلس الأمن الاسلحى فى ردع البغاة هى قوة السلاح ، لأنها خير وسيلة تصل إلى الهدف فى يسر وسهولة . والذى يتتبع تاريخ عصبة الأمم ، ويقتين فشلها فى معالجة المشا كل الدولية ، نتيجة إعراضها عن سلاح القوة أو قوة السلاح فى دفع الظلم ورد العدوان ، يزداد يقينا بأن قتال المعتدى هو خير وسيلة لردعه وتأديبه ، إن لم يكن - وحده - الوسيلة الرادعة .

ففى الدور الأول من الخلاف بين الصين واليابان (١٩٣١ - ١٩٣٣) ، ذلك الدور الذى قام إثر توغل اليابان فى منشوريا ، كان موقف العصبة مائعا لم يعد السعى السلمى والنصح والإرشاد . وكان طبيعياً أن تخيب اليابان سعى العصبة وترفض نصيحها ، وأن تستمر فى عدوانها على منشوريا ، متذرة بما تدعيه من أن الصينيين يوجودون حالة من الاضطراب والفوضى .

وفى المشكلة الحبشية الإيطالية ، لجأت العصبة إلى سلاح المقاطعة . فقد اجتمعت وأعلنت أن إيطاليا معتدية فى السابع من « أكتوبر » سنة ١٩٣٥ ، أى بعد تسعة أشهر من احتجاج الحبشة ، ثم قررت فرض العقوبات الاقتصادية على إيطاليا . وطبعى أن تفوق إيطاليا على الحبشة فى القوة الحربية قد عجل بانتصارها قبل أن تؤثر فيها المقاطعة الاقتصادية وتحد من قدرتها على القتال . وليس بعجيب - والحال هذه - أن يصرح موسوليني بقوله : « سننفذ إرادتنا مع جنيف ، ومن دون جنيف ، وبالرغم من جنيف ! ! » .

فإن سلاح المقاطعة الاقتصادية لا يجدى فتىلا فى الدفاع عن قضية السلام مادام هناك تفاوت فى القوى المقتتلة . فإذا تعادلت القوى كان أثره بطيئاً لا يعجل بالحق ، ولا يطفىء نار الحرب قبل أن تأكل الأخضر واليابس .

وفي الدور الثاني من الخلاف الصيني الياباني (١٩٣٧ - ١٩٣٨) لم ترفع الصين شكواها إلى عصبة الأمم أول الأمر ، ثم لم تلبث أن رفعتها بعد شهرين من بدء القتال . وليتها ما رفعت ! فما كانت عصبة الأمم لتدفع ظلماً أو ترد عدواناً . وكيف وقد كان حلها « العبقري » لهذه المشكلة أن أعلنت أسفها الشديد « لقيام الطائرات اليابانية بإلقاء القنابل على المدن المكشوفة » !! ومن يدري فلعلها ظنت أن « أسفها الشديد » سيحول بين اليابان وبين العدوان أو بين الطائرات اليابانية وبين المدن الصينية المكشوفة .

إن خير ما نعلق به على سياسة عصبة الأمم ما كتبته « سكرتارية » العصبة نفسها إذ تقول : « إن وسائل التحكيم والتوفيق لا فائدة لها فيما يتعلق بالدول القوية التي أوقدت في نفوس رعاياها نار القومية والعنصرية والتي تسعى إلى تحقيق مطامع واسعة بحجة أن معاهدات الصلح اقتطعت منها بعض أملاكها أو لم تنلها في المستعمرات ما تعتبر أنه حق لها . وكان من الطبعي أن تحقق مساعي العصبة كلما اقتضت على مطالبة دولة من هذه الدول باحترام العهود والأذعان لأحكام المعاهدات . كما أنه كان من الطبعي أيضاً أن تفلح هذه المساعي متى كانت الدول المحنكة إليها من غير أنصار العنف ومياله إلى التساهل والتفاهم » .

وقد حدث هذا عند حل المشكلة اليونانية البلغارية سنة ١٩٢٥ فلقد جنح اليونان والبلغار للسلم واستجابوا لنداء العصبة

ولقد بدأت الدول تشعر أن عصبة الأمم لا تنصف من ظلم أو ترد من عدوان . وأن الاحتكام إليها والشكوى لها ، كعدم الاحتكام والشكوى تماماً . ومن أجل ذلك لم نسمع عن دولة تحتج لدى العصبة على احتلال ألمانيا للنمسا

سنة ١٩٣٨... وهذا دليل على أن سلاح القوة الذي نص عليه ميثاق مجلس الأمن الإسلامي في قوله تعالى « فقاتلوا التي تبغى » إنما هو السلاح الذي يند الحرب ويعجل بالسلام .

(ثالثاً) الدور الذي يعقب القتال : وفي هذا الدور تبقى الطائفة المعتدية إلى

أمر الله ، وتذعن للحق ، بعد أن صدمتها القوة المسلحة عن بغيها وعدوانها ، وإذ ذاك يشير ميثاق مجلس الأمن الإسلامي بالرفق واللين ، ويأمر بالعدل والقسط ، عند عقد الصلح بين الطائفتين . فحسب المعتدى أن ردعته الحرب وأدبته القوة . وليس من الحكمة أن نجعل من شروط الصلح جحماً لا يطيقه ، فندفعه إلى الثورة عندما يقوى على الثورة ، ونحفزه إلى الثأر متى وجد إلى الثأر سبيلاً . بل إن الحكمة في أن نصلح بالعدل ونقسط كما أمر تعالى .

ولو أن العالم اتخذ من هذه النظرية الإسلامية دستوراً له ، لجنب نفسه كثيراً من الحروب المهلكة القاسية . فإن ما رأيناه من ظلم الأمم الظافرة للألمان في معاهدة فرساي ، قد حفز الألمان إلى الثورة والانتقام ، حتى أشعلوا نيران الحرب العالمية الثانية . ويقينى أن الألمان لو وجدوا في هذه المعاهدة شيئاً من العدل والإنصاف لتبدل الأمر غير الأمر ، ولتغير وجه التاريخ في السنوات الماضية . وهكذا يثبت التاريخ الحديث نضج ميثاق مجلس الأمن الإسلامي في خطواته الثلاث . فهل يدرك ذلك زعماء العالم ، أم أن أبصارهم عميت عن نور الإسلام ، وصمّت آذانهم عن دعوته !

فِي سَادَةِ الْمَدِينَةِ

لم تكن مهام القيامة الحربية من وضع الخطة وتنظيم الجند تعفى الرسول من القتال كما تعفى قواد اليوم . فقد كان يدعو ربه ثم لا يلبث أن يرى في مقدمة الصفوف ، يجالد الأعداء بسيفه غير هباب ولا وجل . وكم لاقى في الحرب من جراح وآلام ، فاستعذبها في سبيل الله . لا يبالي بالموت يمشی بين الصفوف ، وهو موقن بنصر الله . ولا بالنبل يقذف من كل مكان مادام الله يحميه ويرعاه . فيمده بحنود السموات تصد عنه الكيد والأذى بإذن الله .

ألم تر كيف فرغ أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلقوا إلى الصوت الذي يسمعون يستظلمون الخبر . فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه على فرس لأبي طلحة ، وقد تقلد السيف ، ثم رجع يقول « لن ترأعوا لن ترأعوا » . ثم ألم تر ما أصابه يوم أحد ساعة خلص إليه المشركون فجرحوا وجهه الكريم وكسروا ربايته اليمنى ، وهشموا البيضة على رأسه ، ورموه بالحجارة ، وحفروا له حفرة وقع فيها ...

وأى بطولة هذه التي يسجلها القلم في يوم حنين ! لقد أخذ المسلمين شيء من العجب ، وتسلفت إليهم الغفلة ، فأصابتهم نبال العدو ولما يسفر الليل عن صباح ، فانطلقوا يولون الأدبار في خوف واضطرب ولم يبق منهم إلا رجل واحد يحيط به نفر قليل من المؤمنين . فاذا الرجل ينادى « إلى أين أيها الناس ؟ » كأنه يريد أن يرجعوا فلا يجنبوا عن لقاء الأعداء . ولكنهم لا يلوون على شيء ، فيقول للعباس « اصرخ فيهم » فينادى بصوته الجهورى « أن يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة أن محمداً حي

فهللوا ! » فيسمع القوم نداه ، ويشوبون لرشدهم ، فيقولون : لبيك لبيك ،
ويسرعون إلى الرجل ، فيخوض بهم المعركة مستتبسلاً ، حتى إذا اشتد القتال ،
واجتلد الأعداء قال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلم يكن هذا الذي صمد في وجه العدو ، وآثر اللقاء على الفرار والموت على
الحياة ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا كان قادة المسلمين إذا جد الجد
يقتدون برسول الله ، فيتقدمون الصفوف بمسكين بسيوفهم يجاهدون العدو حتى
يغلبوه أو يقتلوا .

وهذا هو يوم مؤته ... كم فيه من آيات البطولة والاستبسال ما يعجز عن
وصفها البيان ، ويكل من تحريرها البيان ! .

لقد قاتل قائد المسلمين زيد بن حارثة حتى قتل ، فأخذ جعفر منه الراية وقاتل
حتى قطعت يده اليمنى ، فأنشد قائلاً :-

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارداً شرابها

ثم أمسك الراية ببساره ؛ حتى إذا قطعت أمسكها بعضديه ودفع بنفسه إلى
العدو حتى مزقته الرماح ، فحمل الراية منه عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ،
ونظر المسلمون إلى جسد جعفر رضى الله عنه ، فإذا ما بين صدره ومنكبیه وما أقبل
منه تسعون جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ليس منها واحدة في ظهره
فهو مقبل أبداً لا يولى دبره ولا يعرف القهقري .. فأى بطولة هذه ؟! إنها البطولة التي
تلقوها عن قائدهم الأعلى عليه الصلوات . ذلك القائد الذي قال فيه على رضى الله
عنه « لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أقر بنا
إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ! » .

وقد جعلت حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة القائد فرضاً واجباً ، فكان عليه السلام كلما أمر رجلاً على الجند أمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا . وقد حدث أن استعمل عليه السلام رجلاً من الأنصار ، يقال له عبد الله بن حذافة السهمي على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه في شيء ، فقال : اجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟ قالوا بلى ، قال فادخلوها ! فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار « فسكن غضبه وأطفئت النار . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له . فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها .. إنما الطاعة في المعروف . إذ أنهم لو أطاعوا قائدهم فيما أمر لعصوا الله والرسول . وقد جاء القرآن الكريم ينص في صراحة ووضوح على طاعة الله ورسوله قبل طاعة ولي الأمر فقال « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقد كان المسلمون يسرعون إلى طاعة قادتهم في المعروف كل الإسراع ولم يكونوا ينازعونهم حق القيادة والإمارة حرصاً على اجتماع الكلمة وائتلاف الجهود فلقد حدث أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على رأس ثلاثمائة من المهاجرين في غزوة ذات السلاسل . فلما اقترب عمرو من العدو علم أن له بأساً شديداً ، وجمعاً كثيراً ، فخاف على جيشه الهلاك إن هو نازل القوم ، وأرسل إلى رسول الله يستمده ، فأمدّه بمائتين عقد لواءهم لابن الجراح ، وجعل فيهم أبا بكر وعمر وفرسان المسلمين ، وأمر أبا عبيدة ألا يختلف مع عمرو . فلما بلغ المدد عمراً ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس في الصلاة فقال عمرو :- إنما قدمت

علي مدداً وأنا الأمير . فأطاعه ابن الجراح واتخذ منه قائداً وإماماً . وما ذلك إلا طاعة لأمر رسول الله بأن يتطوعا ولا يختلعا ، وتفضيلاً للآخرة على الأولى . فلم يك هؤلاً ، يكثرثون بالدنيا ومظاهرها ، أو يعبثون بالقيادة والإمارة . فالكل سواء أمام الله . ليس للقائد فضل على الجندي إلا بإخلاصه وحسن بلائه . فرب مرؤوس يخرج مغموراً وسط أقرانه فلا يجنى الرياء عليه . ورب رئيس يريه الشيطان نفسه كأحسن ما يكون القائد في جنده والإمام في رعيته ، فيطغى عليه الغرور ويمسكه العجب .

ولو قد كان أصحاب الرسول طلاب رئاسة أو عشاق قيادة لما اصطلحوا على واحد منهم بعد أن قتل زيد وجعفر وابن رواحة يوم مؤته . لقد أخذ الراية ثابت ابن ارقم فقال : - يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم « فقالوا له انت فقال « ما أنا بفاعل » زهداً منه في الرئاسة واعراضاً عن تبعاتها الجسام ، ثم لم يلبث الجند ان اصطلحوا على خالد بن الوليد ، فولياها دون أن يجد منافساً أو منازعاً . ولو كان قوم غيرهم لاختلفوا وتفرقوا ، واستبدت الأثرة بهم فلا يصطلحون على قائد حتى يكيد له الآخرون أو يمتنعوا عن القتال تحت رايته . ومتى دب الحقد والحسد في نفوس الجند فقل على النصر السلام .

* * *

وقد كان من أهم واجبات القائد أن ينظم جنده ويرتب جيشه اتباعاً لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) فكان عليه السلام يرتب الصفوف ويعين الأما كن بيده ، فيقول لهذا تقدم ولذا تأخر . ففي غزوة بدر عدل جنده حتى استقامت صفوفهم ، ودفع اللواء الى مصعب ابن عمير ، والراية التي للمهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، والأخرى التي للانصار

إلى سعد بن معاذ ، وجعل على الساقة قيس بن صعصعة . وفي غزوة احد نظم عليه السلام جنده بعد أن جعل ظهورهم إلى الجبل ، فاعطى اللواء معصب ابن عمير ، وجعل على احدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر ابن عمرو . ثم طاف بالجنود يرد من ليس أهلاً للقتال . فرد يومئذ عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وأسيد بن ظهير ، والبراء بن عازب ، وزيد بن ثابت ، وعرة بن أوس ، وعمرو بن حزام .

ولم يكن عليه السلام ينظر إلى صغر السن ما دام الجسم قوياً نامياً فقد أجاز اثنين من الصبية هما سمرة بن جندب ورافع بن خديج لما رآهما مطيقين . وقد قال ابن عمر لما اذن له بالقتال « فلما رآني مطيقاً أجازني » وخير ما يؤكد ما نراه من أن القدرة لا السن هي مقياس الانضمام إلى الجندية ما رواه ابن عبيد البر في الاستيعاب عند ذكر سمرة بن جندب من ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض غلمان الانصار في كل عام فربه غلام فأجازه في البعث ، وعرض عليه سمرة بن جندب من بعده فردة ، فقال سمرة يا رسول الله لقد أجزت غلاماً ورددتني ، ولو صار عني لصار عته . قال فصارع ، فصارعه سمرة فصارعه ، فأجازه الرسول صلى الله عليه وسلم في البعث .

وقد أخرج ابن سعد عن سعد قال رأيت أخى عمرو بن أبى وقاص قبل ان يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر متوارياً فقلت مالك يا أخى قال اني أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى وأنا أحب الخروج لعل الله ان يرزقنى الشهادة ، فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره . فبكى فأجازه فكان سعد يقول فكنت اعقد حمائل سيفى من صغرى ، فقتل وهو ابن ستة عشر عاماً .

ومن هذا الذي قدمناه يتبين لنا أن رسول الله صلى عليه وسلم كان يعرض صفوف الجند قبل القتال لينظمها ، ويرد من لا يطيق القتال ، ويحيز من يطيق ولو كان صغير السن ، فر بما رد غلاماً فبكي شوقاً إلى الشهادة وحباً في الجهاد فاجازه كما فعل بمعرو بن أبي وقاص . وربما رد غلاماً وأراد أن ينتفع به فجعله في حرس المدينة . وإن هذا التنظيم والترتيب والعرض كان من أهم واجبات القيادة كما قدمنا .

الأمماد الملائكى

لست أشك في أن نصر الله سبحانه للرسول وصحبه في حروبهم وغزواتهم حقيقة ثابتة لا ينكرها باحث مدقق ولا مؤمن صادق . فله جنود السموات والأرض . ومن جنوده الرعد والبرق والمطر . ان سسلطها على قوم فلا حياة لهم أبداً . فقد أشار الحجاب على رسول الله يوم بدر ان ينزل مكاناً يمكن المسلمين من الماء ويمنعه عن قريش . وكانت قريش هي الأخرى تريد ان تسرع إلى الماء فتمنعه عن المسلمين وتظفر هي به . ولكن الله تعالى حى لا ينام ، يقط لا يغفل . . لقد وعد عباده النصر . ولئن ظفرت قريش بالماء ومنعته عن المسلمين لما تحقق ذلك النصر ، وحاشا لله إذا أراد شيئاً ان لا يتم . إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون . والله جنود السموات والأرض . لقد أرسل الله على الأرض مطراً كان شراً ووبالاً على قريش ، وبرداً وسلاماً على المسلمين : كان المطر غزيراً على معسكر قريش ، وكان معها كثير من الخيل ، فلم تقو لغزارة المطر وبلوله الأرض على الاسراع إلى الماء . وكان المطر قليلاً هادئاً على معسكر المسلمين فلبد لهم الأرض وجعلها ذلولاً لابلهم ، فثبتت أقدامها على الرمال . فسبق الرسول وصحبه إلى الماء وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداه من المياه .

ومن جنوده الملائكة عليهم السلام . وقد تجلى نصرهم للمسلمين في بدر حتى سمعهم وأحسوا بهم ، فلم يبق الا أن يكشف عنهم الحجاب فينظروا إليهم . ولا عجب فهذا ابن عباس رضى الله عنه يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه فيسمع ضربة سوط وصوت فارس يقول : اقدم حيزوم ، ثم يرى المشرك أمامه ملقاً على الأرض وقد خطم انفه وشق وجهه من أثر السوط ، فيعلم أن

هناك غيره قد فعل ذلك ، ويذهب إلى رسول الله عاجباً يحدثه بأمر حيزوم !
فيقول له الرسول صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ! !
وقد كان أبو داود المازني يتبع رجلاً من المشركين ليضربه ، وبينما هو
كذلك إذ برأس المشرك تقع على الأرض قبل ان يصل إليه سيفه فيعلم أن
هناك من قتله غيره .

وقد استطاع رجل من الانصار ان يأتي بالعباس بن عبد المطلب أسيراً إلى
رسول الله . ولكن العباس صاح قائلاً « ان هذا والله ما أسرني . لقد أسرني
رجل أجلب من أحسن الناس وجهاً ، على فرس ابلق . وما أراه في القوم ! !
فقال الانصارى « أنا أسرته يا رسول الله » فقال الرسول « اسكت فقد ايدك
الله بملك كريم ! » .

ولم يكتف الملائكة بالحرب والقتال ، بل كانوا يطهرون الشهداء فيغسلونهم بالماء
إن كانوا جنباً . من ذلك ما حدث لحنظلة ابن أبي عامر ، فقد سمع صيحة الجهاد
يوم أحد وكان على امرأته فقام من فوره يجاهد في سبيل الله ، فقاتل حتي قتل
فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال سلوا أهله
ما شأنه ، فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر .

ولا نستطيع أن نقف عند الإستشهاد بحمد الله ، ففي هذه الحوادث بطولة
ورجولة لا يستطيع القلم أن يقف أمامها على القرطاس ، بل أنه ليجرى بكلمات
التقدير والإعجاب . فهذا الرجل - رضى الله عنه - يجامع امرأته ، فيسمع
الصيحة ويسرع إلى الله ورسوله ولما يقض شهوته ، لأن لذة الجهاد من أجل الله
خير من الدنيا وما فيها . وكيف لا ، وهي لذة الروح ، ترتفع بصاحبها من مادية
الأرض إلى روحانية السماء . . . ان هذا الرجل قد آمن الله ، ولا يؤمن إنسان

حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه . فكيف يجامع النساء وغيره يسرع إلى الهياج ؟ بل وكيف يفضل امرأته على الله ورسوله ؟ ! لقد فاض هذا القلب المؤمن بحب الله . فانتهى عما نهى عنه الله إذ يقول (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

فلا عجب أن أكرمه الله بهذا الشرف العظيم . فانزل ملائكة تغسله وتطهره فله هذا من وسام ! والله هذا من شرف !

ولقد روى نافع بن جبير عن رجل من المهاجرين أنه قال « شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك يصرف عنه » فمن كان يصرفها عنه إلا الله ، ومن كان يحميه إلا جند الله ، فتدفع عنه الأذى بإذن الله . هذه الأحجار تنفتحت قبل أن تصل إليه ، أو تطير بها الريح بعيداً عنه ، أو تهبط هي من خشية الله أن تصيب رسوله وأحب الخلق إليه . وكل لله جند وكل لله طوع .

ولقد أكمل هذا المهاجر حديثه فقال « ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد لا نجوت إن نجا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فمات به في ذلك صفوان ، فقال والله ما رأيته أحلف بالله أنه ممنوع . وهنا يسخر الله جنده كما سخرها يوم الهجرة ، فأعشى بصراً بن شهاب كما أعشى رجال القبائل عندما أحاطوا ببیت رسول الله . ورسول الله ليس ببعيد ، وإنما هو إلى جانبه ، إلا أنه ممنوع كما شهد الرجل . ومن يمنعه إلا الله ؟ ... وكفى بالله مانعاً . وكفى بالله نصيراً .

وإن يوم الخندق ليمتلىء بنصر الله وتأيدته . فقد سخر الله جنده لنصرة دينه .
البرق يلمع فيخطف الأبصار ، ، والرعد يقصف فيثقل الآذان ، والمطر يهطل فيطفيء
النيران ، والريح تعصف فتكفأ القدور وتقوض الخيام ، والرعب يقذف فيسلب
الأمن من النفوس ، والأرض تميد بهم فلا يقر لهم قرار ، وترى القوم سكارى ،
وما هم بسكارى ، ترتفع الصيحات من أفواههم مضطربة خائفة ، تنادى بالنجاة
من هذا البلاء فيسرع القوم ويولون الدبر ، يظنون أن قد نجوا ، والساعة موعدهم
والساعة أدهى وأمر . وإذ ذاك تقلع السماء ، وتبلغ الأرض الماء ، ويخمد البرق ،
ويسكت الرعد ، وتهب الرياح . وينظر المسلمون أمامهم ، فلا يجدون عدوهم ،
فيمتلىء قلوبهم بحمد الله ، وتردد ألسنتهم قوله الكريم « والله جنود السموات
والأرض » ويعبر شاعرهم عما تختلج به نفوسهم فيقول :

حتى إذا بلغوا المدينة وارتجوا قتلى الرسول ومعنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم وجنود ربك سيد الأرباب
فكفى الآلهة المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب
وعندما دخل الرسول المدينة ، وضع السلاح ، لكن جبريل لم يمهل أن
جاءه فقال « أوضعتم السلاح . فما وضعت الملائكة السلاح بعد . وما رجعت
الآن من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فأني عامد
إليهم فززل بهم » فقال عليه السلام لأصحابه « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين
العصر إلا في بني قريظة . فأسرع المسلمون إليها . وهناك أيدهم ربهم بنصره
وأمددهم بحنده » وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيههم ، وقذف
في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم

وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً»

والمؤرخون أمام هذا النصر الإلهي والمدد الملائكي فريقان . فريق يرى أن قتال الملائكة كان حسيماً ، وفريق آخر يرى أن الإمداد الملائكي كان إمداداً معنوياً .

والفريق الأول يستند إلى ظاهر الآيات التي أشارت إلى هذا الإمداد ، وإلى الأخبار التي سجلها التاريخ عن غزوات المسلمين ، والتي قدمنا الحديث عنها ، وهم من أجل ذلك يعتقدون أن المسلمين لم يكونوا ٣١٤ محارباً في غزوة بدر مثلاً ، وإنما كانوا ٣٣١٤ أو ١٣١٤ : ٣١٤ من الإنس والباقي من الملائكة . وفي الحق أن الباحث لا يكاد يرى مثل رأى هؤلاء المؤرخين ، ويذهب إلى ما ذهبوا إليه من أن الإمداد الملائكي كان حسيماً حتى يسأله عقله ، وما حاجة المسلمين إلى ألف أو ثلاثة آلاف من الملائكة مادام الإمداد حسيماً ؟ ألا يكفي ملك واحد ليهزم أقوى جيش ؟ وكيف لا وقوته من قوة الله لا تقاومها أية قوة . وإذا سلمنا أن الإمداد الملائكي كان حسيماً ، ألا تتضامل معه جهود المسلمين في غزوة بدر أمام جهود الملائكة ^(١) .

ليس أمامنا إزاء التاريخ الذي يثبت بحقائقه أن القتال كان حسيماً والعقل الذي يعجب بما يبدى من أسئلة يملئها عليه المنطق ؛ كيف كان القتال حسيماً ، ليس أمامنا إزاء التاريخ وحقائقه ، والعقل ومنطقه إلا أن نذهب إلى رأى وسط بين التاريخ والعقل . إن من البله أن نضرب بالعقل ومنطقه عرض الحائط ، كما أن

(١) يرى الأستاذ عبد الوهاب خلاف بك أن الإمداد الملائكي كان إمداداً معنوياً ، ويرى غيره أنه كان حسيماً . فأما رأينا فنفضله في الصفحتين التاليتين .

من التجنى أن نقذف بالتاريخ وحقائقه وجه الفضاء ، فمن البله أو التجنى أن نميل إلى العقل وندع حقائق التاريخ أو نميل إلى حقائق التاريخ وندع منطق العقل عند ما يبدو لنا شيء من التعارض بينهما ، إذ من اليسير على الباحث المفكر أن يوفق بين العقل والتاريخ ، فلا أظن أن الحقيقة تتعارض مع المنطق أبداً ، بل ولا أعقل ذلك .

فليس يعنى تحديد القرآن لعدد الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين بألف أو ثلاثة آلاف ، أنهم اشتركوا جميعاً في القتال أو أنهم اشتركوا بعضهم أو كلهم اشتركا كاملاً . فاشتركا جميعاً ، أو اشترك بعضهم اشتركا كاملاً معناه هلاك جيش المشركين في أقل من لمح البصر . وهذا ما لم تؤيده حقائق التاريخ فإنما كانت المعركة ككل المعارك يموت من أحد الفريقين كما يموت من الآخر ثم ينتهى الأمر بانتصار فريق على فريق بعد جهد وعناء من الفريقين . ولو كان القصد إهلاك قريش ، لما أرسل الله ألف ملك . بل ولما أرسل ملكاً واحداً . وإنما تهلكهم مجرد الرغبة الإلهية . فما تلحق السكاف النون من قوله تعالى كن حتى يكونوا قد بادوا دون ملك أو ألف ملك .

وأكبر الظن أن القصد من ذكر الملائكة بهذه السكثرة عند التحدث عن امداد الله بهم عبادة ، إنما كان لاطهار جبروت الله وقوته وأن له جنود السموات والأرض ، وبث العلمانية في قلوب المسلمين كي لا يخافوا من قلة ، فهم بالله وجنده كثير . وأكبر الظن كذلك أن هذه الألف أو الآلاف من الملائكة كانوا حاضري المعركة على اهبة القتال ، إلا أنهم اشتركوا اشتركا طفيفاً بالنسبة إليهم كملائكة عظيماً بالنسبة للمشركين كبشر .

كما أن اشتراكهم كان في مواضع خاصة كحماية من يريد الله حمايتهم من
المسلمين ، كرسوله وبعض الصحابة الذين يرجو الرسول أنه يشدوا من أزره .
وفي أوقات خاصة لعلها عند ما يخشي على المسلمين الهزيمة ، كأن يردوا المشركين
ثم يمكنوا للمسلمين منهم ويدعوا المسلمين بعد ذلك يحاربون ويبذلون الجهد
وهكذا حتى يكتب الله لهم النصر .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

صحيح البخارى

سيرة ابن هشام

الطبقات الكبرى لابن سعد

التراتب الادارية

الأحكام السلطانية للماوردي

الخراج لأبي يوسف

تفسير المنار

زاد المعاد لابن القيم

القرآن والقتال للشيخ شلقوت

النظم الإسلامية للدكتورين حسن ابراهيم وعلى ابراهيم

عصبة الأمم للبدرمانى

عصبة الأمم لسكروتارية العصبة بجنيف

الحرب العظمى « لعمر أبو النصر »

الحرب العظمى لكانب فرنسى تعريب ادوارد مرقص

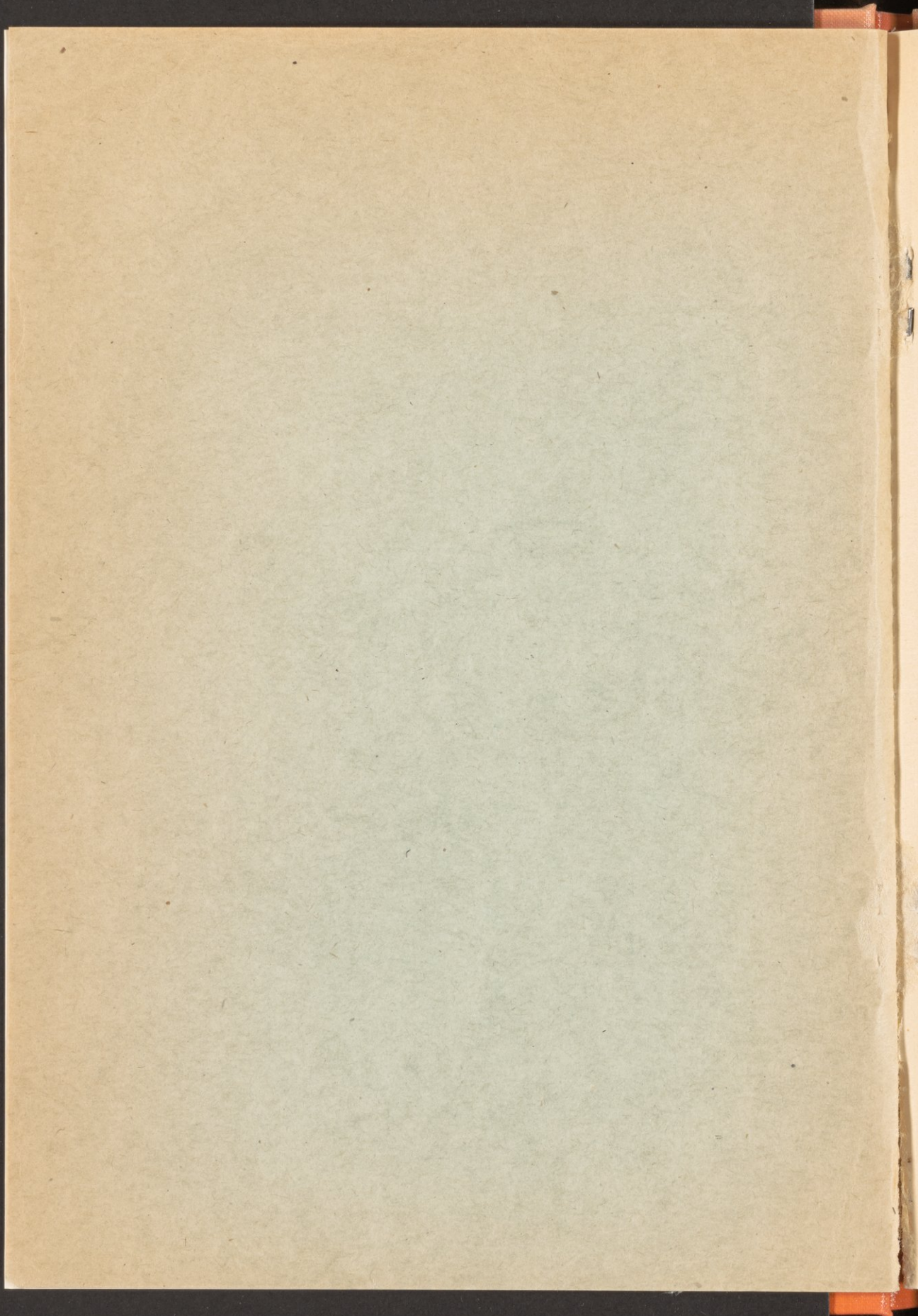
الحرب لأحمد حسين

بحوث متفرقة فى بعض المجالات الثقافية .

فهرس الكتاب

٦٩	التدريب العسكري	٥	تقديم
٧٠	التجنيد الاجبارى	٧	كيف شرع القتال
٧٨	النساء والحرب	٩	حكومة الرسول حكومة سلام
٨٥	الjasوسية	٢٠	غاية الحرب فى الإسلام
٩١	الحرب خدعة	٢٢	علاقة المسلمين بالدول المجاورة
٩٦	الحرب الاقتصادية	٢٦	الحروب الإسلامية والمبادئ
١٠٠	حرب الاعصاب		الانسانية
١٠٣	الطابور الخامس	٣٥	المهود والمواثيق
١٠٨	رجع إلى قواعده سالما	٤٢	الفضيلة فى حروب الإسلام
١١١	مجلس الحرب	٤٦	القتال فى الشهر الحرام
١١٣	مجلس الامن الإسلامى	٤٨	الاسرى
١١٨	قيادة الجيش	٥١	هل يستعان بغير المسلم ؟
١١٤	الامداد الملائكى	٥٥	القوة المعنوية
١٣١	مصادر الكتاب	٦٠	القوة المادية





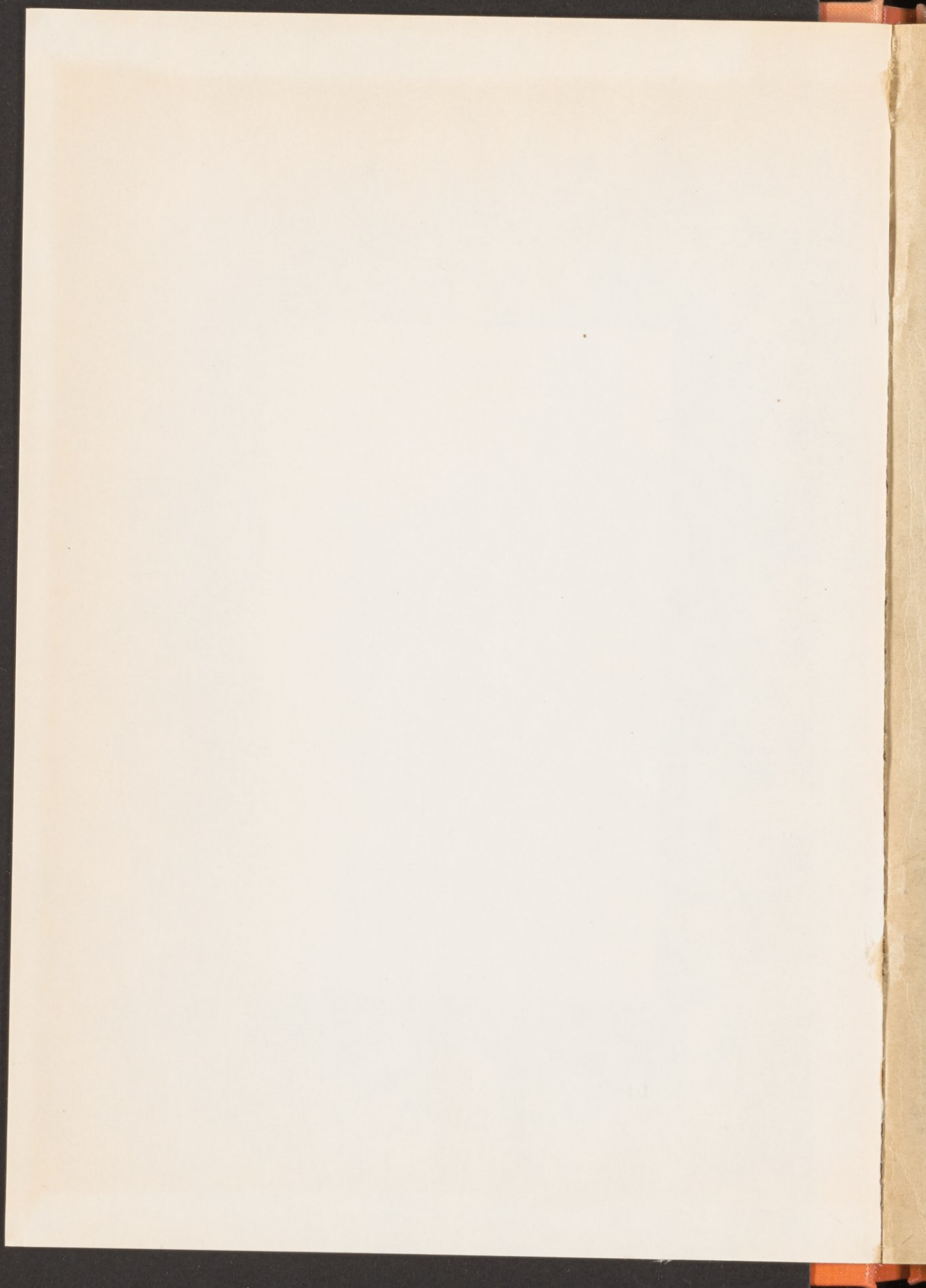
يطلب من

مكتبة الخانجي و مكتبة المثني

ببغداد

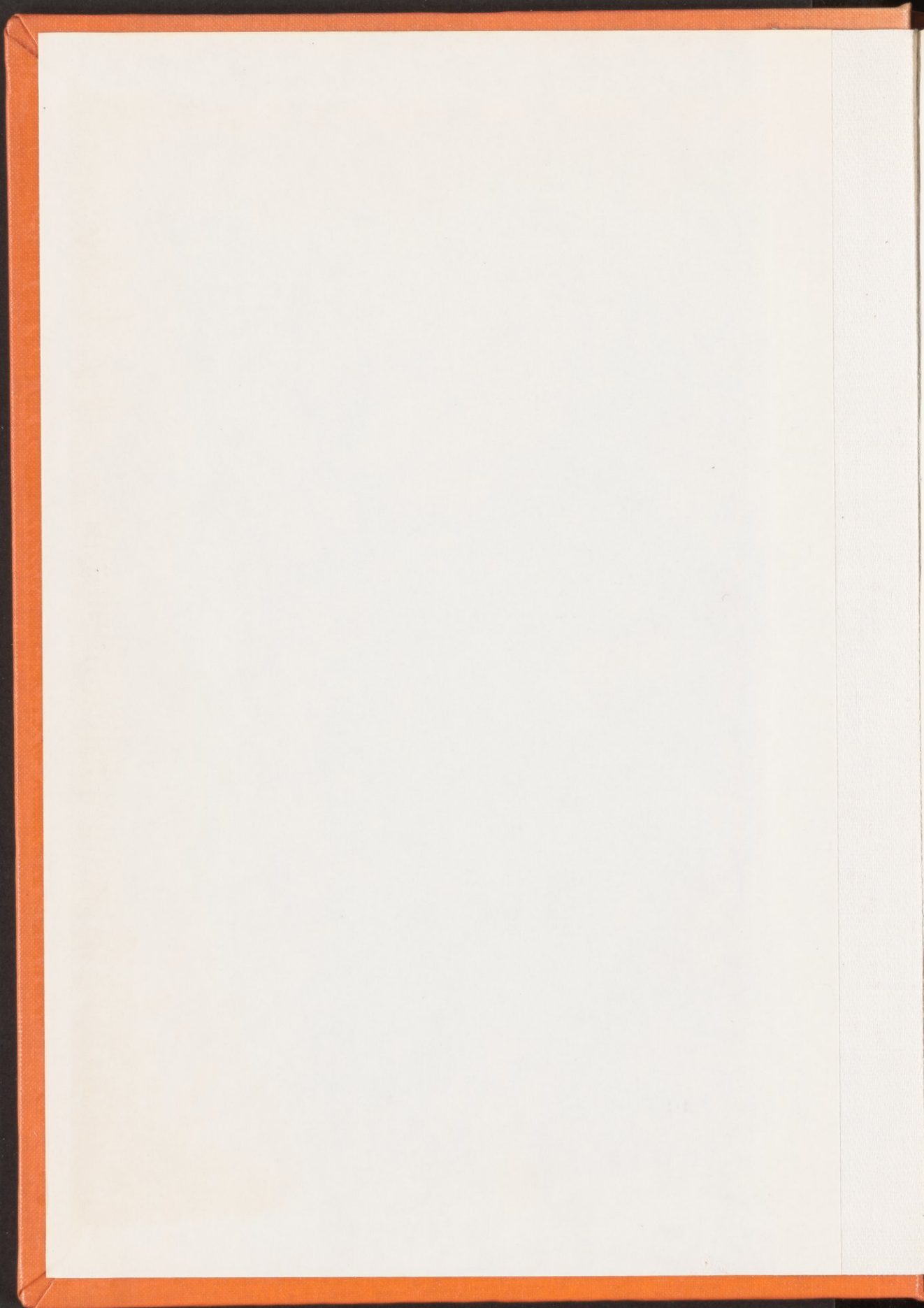
بمصر

التمن ١٥ قرشا



[illegible]

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 02821 6706

DS62.5 .A9

Nuzum al-harb fi al-Islam